

الكتاب الثاني

نهضة بلاد اليونان

من ١٠٠٠ الى ٤٨٠ ق.م.

أهم الحوادث في الكتاب الثاني

مرتبة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ السابقة لعام ٤٨٠ عدا ٧٧٦ تواريخ غير مؤكدة . إذا ذكر اسم مكان غير مصحوب بوصف آخر دل ذكره على تاريخ استيطانه الأول كما تذكره الـ ١١ واهات التاريخية المأثورة :

ق . م .	
هجرة الأيوبيين والأيونيين .	١١٠٠ - ٨٥٠
تشديد هيكل هيرا في أولمبيا .	١٠٠٠ -
عصر هومر المرجح .	٨٤٠ -
الألماب الألبية الأولى .	٧٧٦ -
سيوب وكوميا .	٧٧٠ -
سيزكس وتراپيزس .	٧٥٧ - ٦
المعهد الأول للرؤساء (الأرخون) الذين كانوا يتولون الأمور .	٧٥٢ -
عشر سنين .	
اليونان يستقرون في شبه جزيرة تراقية .	٧٥٠ - ٦٥٠
عصر الأشراف .	٧٥٠ - ٥٩٤
عصر هزيود المرجح .	٧٥٠ -
ناكسوس و (صقلية) .	٧٢٥ -
كرصيرا وسرقوسة .	٧٢٤ -
رجيوم ، ولينتيني : وكثانا .	٧٢٠ - ٢٩
الحرب المسينية الأولى .	٧٢٥ - ٧٠٥
الثقود في ليديا وأيونيا .	٧٢٥ -
سيبارس ، ٧١٠ كروتونا .	٧٢١ -
تاراس ، ٧٠٠ ، پوسيدونيا ؛ بدء استعمال الحجارة في العمارة اليونانية .	٧٠٥ -
المصر الأول للحكام ائمة الذى كان يدوم عاماً واحداً .	٦٨٢ -
فيدون طاغية أرجوس ؛ أول ظهور العملة الرسمية في بلاد اليونان .	٦٨٠ -
أرجيراس طاغية في سيكون .	٦٧٦ -
تريندر اللبوسى الشاعر والموسيقى ؛ أركلوكس الباروسى الشاعر ، أناشيد هومر لأبلو وديتر .	٦٧٠ -
شرائع زاركس في لكريم .	٦٦٠ -
بيزنطية ، ٦٥٤ لمهاكوس .	٦٥٨ -

ق . م . ٠

- ٦٥٥ - ٦٢٥ . كپيلوس طاغية في كورنثة .
- ٦٥١ - سلتوس ٦٥٠ ، أبديرا وألبيا .
- ٦٤٨ - هيرا ، ميرون طاغية في سكيون .
- ٦٤٥ - ٣١ . الحرب الميسينية الثانية ، ترفيوس الشاعر في اسبارطة .
- ٦٣٥ - شرائع ليكورغ في اسبارطة (٢) .
- ٦٣٥ - سيربي (٦١٥) أيدوس .
- ٦٢٥ - ٥٨٥ . پريندر طاغية في كورنثة .
- ٦٢٥ - شرائع دراكو في أثينة .
- ٦١٥ - ثراسيبولوس طاغية في ميليتس .
- ٦١٥ - شرائع كارتداس في كنانا .
- ٦٠٥ - نفرطس ، مساليا (مرسلينا) ؛ كليثيس طاغية في سكيون ،
وبتاكس في مثلبي ، وسيفو وألكيوس شاعرا لسوس ،
طاليس فيلسوف ميليتس ، ألكمان الشاعر في اسبارطة ، نهضة
فن النحت .
- ٥٩٥ - الحرب المقدسة الأولى .
- ٥٩٤ - شرائع صولون في أثينة .
- ٥٩٥ - عصر الحكاه السبعة ، نشأة الحلف الأمفكتيون ، والأرفية . الهيكل
الثاني لأرتيميس في إفسس .
- ٥٨٢ - الألعاب البينية والبرزخية الأولى ، تمثيل الأكرودولس وأبلو
- ٥٨٠ - أكراجاس ، إيدوب الساموس ، صاحب الخرافات المشهورة .
- ٥٧٦ - الألعاب التيمية الأولى .
- ٥٧٥ - فلاس طاغية في أكراجاس ؛ استيكتورس الهيري الشاعر ؛
انكسندر فيلسوف ميليتس .
- ٥٦٦ - الألعاب الاثينية الجامعة الأولى .
- ٥٦١ - ٦٠ - حكومة الطاغية بيستراتس الأولى .
- ٥٦٠ - ٤٦ - كروسس اللبي يخضع أيونيا .
- ٥٥٨ - قرطاجة تستول على صقلية وقورسقة .
- ٥٥٥ - إميوروم (اسبانيا) ، ٦٣٥ إلبيا (إيطاليا) .
- ٥٤٦ - ٢٧ - حكومة الطاغية بيستراتس الثانية
- ٥٤٥ - فارس تخضع أيونيا .
- ٥٤٤ - انكسينس فيلسوف ميليتس .
- ٥٤٥ - هه ناكس شاعر إفسوس .

	ق. م.
يولكراتس طاغوسة ساموس ؛ ثيودورس فانز ساموس ؛ أنكريون شاعر تيوس .	١٥ - ٥٢٥
ثيسيس يوطد قواعد التمثيل في أثينة .	- ٥٢٤
ثيجينيس شاعر مجارا .	- ٥٢٥
الفيلسوف فيثاغورس في كروتانا .	٥٠٠ - ٥٢٩
هيباس طاغية أثينة .	١٠ - ٥٢٧
بده هيكل الألمبيوم في أثينة .	- ٥٢٥
سمنيدس شاعر كيرس .	- ٥١٧
مؤامرة هرمديوس وارستوجيتون .	- ٥١٤
فرينكوس الممثل الأثيني .	- ٥١١
كروتونا يدمر سيبارس .	- ٥١٠
كليستينز يوسع نطاق الديمقراطية في أثينة .	- ٥٠٧
هككيوس جغرافي ميليتس .	- ٥٠٠
أيونيا ثور ؛ مسرحية إيسكلس الأولى .	- ٤٩٩
اليونان الأيونيون بحرقون سرديس .	- ٤٩٧
الفرس يغلبون الأيونيين في لادى .	- ٤٩٤
شمستكاييز حاكم (أرخون) في أثينة .	- ٤٩٣
مرثون ؛ هيكل أنيا في إيجهنيا .	- ٤٩٠
أرسقديز حاكم (أرخون) ؛ محاكمة ملتياذس .	- ٤٨٩
ثيرون طاغية في أكرجاس .	٧٢ - ٤٨٨
اختيار الأرغونيين بالقرعة لأول مرة .	- ٤٨٧
جيلون طاغية في سرقوسة .	٤٧٨ - ٤٨٥
إنكارمس يوطد دعائم الملهاة في سرقوسة .	- ٤٨٥
نفي أرسقديز .	- ٤٨٢
عمارك أرتيمسيوم ، وترمويل ، وسلاميس ، وهيرا ؛ أجلاذاس الأرجوسى المثال .	- ٤٨٠
ممركتا بلاتية ومكالى .	- ٤٧٩

الباب الرابع

اسپارطة

الفصل الأول

البيثة المحيطة ببلاد اليونان

لننظر إلى خريطة للعالم القديم ونطلع فيها على جيران بلاد اليونان القديمة ، ونعنى ببلاد اليونان أو هلاس جميع البلاد التي كان يسكنها في الزمن القديم شعوب تتكلم اللغة اليونانية .

ولنبداً بالنظر إلى الأصقاع التي دخل منها إلى تلك البلاد كثير من الغزاة — فوق تلال إبيروس وعلى طول وديانها . وما من شك في أن أسلاف اليونان قد أقاموا في تلك الأماكن كثيراً من السنين ، لأنهم أنشأوا في ددونا Dodona مزاراً لزيوس إله السماء المرعد . ولقد ظل اليونان حتى القرن الخامس يتلقون الوحي في هذا المكان ويقرأون ما تريده الآلهة في غليان المراجل أو حفيف أوراق البلوطة المقدسة^(١) . ويحترق نهر أكرون الجزء الجنوبي من إبيروس ، وسط أخايد بلغت من الظلمة والعمق درجة جعلت شعراء اليونان يصفونها بأنها مدخل الجحيم أو أنها هي الجحيم نفسها . وكان معظم أهل إبيروس في أيام هومر يتكلمون اللغة اليونانية ويتبعون الأساليب اليونانية ، ثم طغت عليهم موجات جديدة من الهمج أهل الشمال وحالت بينهم وبين المدينة .

وإلى شمال إبيروس على ساحل البحر الأدريايوى تقع إليريا Illyria ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه ببلاداً قليلة نسكان أهلها من الرعاة يبيعون الماشية والعييد بملح الطعام^(٢) . وعلى هذا الساحل عند إيدمنوس Epidamnus (وهى ديركيوم Dyrrachium الرومانية ودرزو الحالية) أنزل قيصر جنوده وهو يطارد بيمبي . وعلى الجانب الآخر من البحر الأدريايوى اغتصب اليونان السواحل الجنوبية من القبائل المستوطنة هناك . وأدخلوا الحضارة فى إيطاليا ، (وقد عادت تلك القبائل فى آخر الأمر فاكسحتهم وابتلعت معهم بلادهم الأصلية وضممت بلادهم إلى إمبراطورية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم) . وكان من وراء جبال الألب الغاليون ، الذين أخلصوا الود فيما بعد لمساليا (مرسليليا) ؛ وفى الطرف الغربى من البحر المتوسط تقع أسبانيا ، وكانت قد تمدنت إلى حد ما على يد الفينيقيين والقرطاجيين حين أنشأ اليونان فى عام ٥٥٠ مستعمرتهم الوجلة فى إمبريوم (أمپورياس Ampurias) . وكانت قرطاجنة الإمبراطورية تقع على ساحل أفريقية أمام صقلية تتسلط عليها وتهدها ، وقد اختط هذه المدينة ديدو Dido والفينيقيون ، وتقول الرواية إن ذلك كان فى عام ٨١٣ . ولم تكن وقت إنشائها قرية صغيرة بل كانت مدينة عامرة يبلغ سكانها ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، تحتكر تجارة البحر المتوسط الغربى وتسيطر على يتكا ، وهى Hippo وثلاثمائة بلدة أخرى فى أفريقية ، ومناجم غنية ، ومستعمرات فى صقلية ، وسردينية ، وأسبانيا ، وقد قدر لهذه الحضارة ذات الثروة الطائلة أن تقود الكفاح ضد اليونان من ناحية الغرب ، كما قدر لبلاد الفرس أن تقوده من ناحية الشرق .

وإلى شرق هذه المدينة على ساحل أفريقية كانت مدينة قورينة اليونانية ، وفى مؤخرتها بلاد اللوبيين المجهولة ، وإلى شرقها مصر . وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر . وتغزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال كدموس

Cadmus ودانوس Danaus جامعا من مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت^(٣) . وقد انتشرت التجارة المصرية وبعث الفن المصرى من جديد فى عهد الملوك-الساويين (٦٦٣ - ٥٢٥) ، وفتحت الثغور الواقعة على نهر النيل لتستقبل التجارة اليونانية لأول مرة فى التاريخ . وزار مصر كثيرون من عطاء اليونان المشهورين - أمثال طاليس ، وفيثاغورس ، وصولون ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، فأعجبوا أشد إعجاب بعظيم حضارتها وقدمها ؛ ولم يجدوا فيها برابرة همجاً كالذين كانوا يجلبونهم فى الأقطار الأخرى ، بل وجدوا فيها أقواماً كانت لهم حضارة ناضجة ، وفنون راقية ، قبل سقوط طروادة بألفى عام . وكان مما قاله أحد الكهنة المصريين لوصولون : « إنكم أيها اليونان لاتزالون أطفالا ، ثرثارين ، مغرورين ، لا تعرفون شيئاً عن الماضى . ولما أخذ هكتيوس الملبى يزدهى على الكهنة المصريين ويقول لهم إن فى وسعه أن يذكر لهم سلسلة نسبه التى تنتهى بعد خمسة عشر جيلا إلى أحد الآلهة ، أطلوه فى هياكلهم على ٣٤٥ تمثالا لكبار الكهنة كل منهم ابن الذى قبله ويتكون من مجموعهم ٣٤٥ جيلا تبدأ من العهد الذى كان فيه الآلهة يحكمون الأرض^(٥) . وكان علماء اليونان أمثال هيرودوت وأفلوطرخس يرون أن العقيدة الأرفية القائلة بأن الخلق يحاسبون بعد موتهم على ما قدموا من خير وشر فى حياتهم ، وأن الاحتفالات التى كانت تقام لبعث دتمر وپرسفونى فى إلبوسيس ، مأخوذة كلها عن عبادة إيزيس وأوزيريس المصريين . وأكبر الظن أن طاليس الملبى تعلم الهندسة النظرية فى مصر ، وأن روكوس Rhoecus وثيودورس الساموسيين قد عرفا فيها فن صب الآنية المحوفة البرنزية ، وفى مصر ازداد مهارة فى صناعة الفخار والنسيج وطرق المعادن والحفر على العاج^(٦) . وعن المصريين والأشوريين والفينيقيين والحثيين أخذ المثالون اليونان طراز تماثيلهم الأولى - وجوهها المستوية ، وعيونها

المائلة ، وأيديها المقبوضة ؛ وأطرافها المعتدلة المتصلبة(*) . وقد وجد مهندسو اليونان بعض إلهامهم الفنى ، الذى أوحى إليهم بالعمد المحززة وبالطراز الدورى ، فى عمد سقارة ، وبني حسن ، كما وجدوا بعضه الآخر فى بقايا ميسنى اليونانية^(٨) . وكما أن بلاد اليونان قد تعلمت فى شبابها من مصر واعترفت لها بالفضل ، فإنها حين خارت قواها ماتت فى أحضان مصر إذا جاز هذا التعبير ، فقد مزجت فى الإسكندرية فلسفتها ، وطقوسها الدينية ، وآلهتها بنظائرها فى مصر وبلاد اليهود حتى تبعث وتحيى حياة جديدة فى رومة وفى المسيحية .

وكان أثر فينيقية فى اليونان لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها . فقد كان تجار صور وصيدا المغامرون وسيلة طوافة لنقل الثقافة ، ونشروا فى جميع أقاليم البحر المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى ، وصناعاتها ، وفنونها . وطقوسها الدينية . ولقد بز الفينيقيون اليونان فى صنع السفن ولعل اليونان قد أخذوا هذه الصناعة عنهم ؛ وعلموهم كذلك أساليب فى طرق المعادن ، والنسيج والصبغة خيراً من أساليبهم^(٩) ، وقد اشتركوا مع كريت وآسية الصغرى فى نقل الصورة السامية للحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها فى مصر واليونان وسوريا ؛ وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها^(١٠) ، وساعنها المائبة ومزولتها^(١١) ، ووحدات العملة المتداولة فيها ، وهى الأبول obol والمينا mina ، والثالث (الوزنة)^(١٢) ، وقواعد علم الملك ، وآلاته ، وسجلاته ، وحسابه ، ونظامها الستينى الذى يقضى بتقسيم السنة والدائرة والزوايا الأربعة القائمة التى تتقابل فى مركزها إلى ٣٦٠ جزءاً ، وتقسيم كل درجة إلى ٦٠ دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين إلى ٦٠ ثانية ، ولعل معرفة طاليس بعلم الفلك عند المصريين

(*) انظر تمثال كاريز Cithares الجالس للذى عثر عليه فى ميلتس والمحموظ فى المصحف البريطانى ، أو رأس كليوبس Cleobis الذى صنعه بليميدس Polymedes والمحموظ فى مصحف دلق .

والبابليين هي التي أمكنته أن يتنبأ بكسوف الشمس (١٣) ، ولعل هزبود قد أخذ عن بابل فكرته القائلة إن الفوضى والعناء أصل الأشياء جميعها ؛ وإن قصة إشتار وتموز لتشبه قصتي أفرديتي وأدنيس ودمتر وپرسفوني شهاً يدعو إلى الظن بأن الأولى هي الأصل الذي أخذت عنه القصتان الأخريان .

وكان بالقرب من الطرف الشرقى للمحيط التجارى الذى يضم أجزاء العالم القديم كله آخر أعداء اليونان ونعنى بهم الفرس . ولقد كانت حضارة بلادهم من بعض نواحيها - وإن كانت نواحي قليلة - أرقى من حضارة بلاد اليونان المعاصرة لها . فلقد أخرجت إلى العالم طرازاً من الرجل المهذب أرقى وأظرف من الرجل اليونانى فى كل ناحية من النواحي عدا حدة الذهن والتعليم ، كما أنشأت نظاماً للإدارة الإمبراطورية يفوق بلا جدال ذلك النظام الذى كانت تزعمه أثينة واسبارطة ، ولم يكن يتقصه إلا حرص اليونان على الحرية . ولقد أخذ اليونان الأيونيون عن آشور قديراً من المهارة فى صنع تماثيل الحيوان ، كما أخذوا عنهم فى صناعة النحت المبكرة ميلهم إلى ضخامة التماثيل واستواء ما عليها من اللبس ، وأساليب الزينة فى الأطناف والقوالب ، وفى طراز النقش البارز فى بعض الأحيان ، كما نشاهد ذلك فى لوحة أرستيون الجميلة (١٤) . وكانت لليديا علاقات وثيقة بأيونيا ، وكانت سرديس عاصمتها الزاهرة بمثابة البيت التجارى الذى تصنى فيه المتاجر والأفكار المتبادلة بين بلاد التهرين والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل . وقد اقتضت الأعمال التجارية الواسعة قيام المصارف ، واضطرت الحكومة الليدية إلى إصدار عملة مضمونة من الدولة فى عام ٦٨٠ . وسرعان ما حاكى اليونان هذا العمل الجليل ذا الفائدة العظمى للتجارة ، وأدخلوا عليه ضروب الإصلاح والتحسين ، وكان له من الآثار التى لا تقبل فى خطرهما وسعتها عن استخدام الحروف المجانية . وكان أثر فريجيا فى بلاد اليونان أقدم من هذه الآثار السابقة . وأدل على حذق الفريجين . فقد دخلت سيبيلى أمها

الإلهة من أول الأمر إلى دين اليونان ، وأضححت موسيقى الناي وما يصحبها من تهتك هي « الطراز الفريجي » الشائع بين عامة الشعب ، والذي أقلق بال رجال الأخلاق اليونان . وعبرت هذه الموسيقى العنيفة مضيق المهلسنت من فريجيا إلى تراقية ، واستخدمت في طقوس ديونيسس . وكان إله الخمر أهم ما أهدته تراقية إلى بلاد اليونان ، ولكن مدينة تراقية هي أبلرا المتأخرقة أرادت أن تعوض بلاد اليونان عما أصابها بهذه الهدية فأهدت إليها ثلاثة من فلاسفتها - هم ليوسپس Leucippus ودمقريطس Democritus ، وپرونجراس Protagoras . وتراقية هي التي انتقلت منها طقوس ربات الشعر إلى بلاد اليونان ، ولقد كان واضعو فن الموسيقى اليونانية نصف الخرافيين - أرفيوس ، وموسايوس Mausaeus وThamyris - مغنين وشعراء تراقيين .

وننتقل بعد من تراقية نحو الجنوب إلى مقدونية ، وبذلك نكون قد أتممنا دراسة كل ما يحيط ببلاد اليونان من حضارات . ومقدونية بلاد جميلة المناظر الطبيعية ، كانت أرضها في الزمن القديم غنية بالمعادن ، وسهولها الخصبنة تنتج الفاكهة والحب ، وجبالها تنثني أقواماً صلاباً قدر لهم فيما بعد أن يفتحوا بلاد اليونان . وكان سكان الجبال والفلاحون من أهلها من عناصر مختلطة ، أهمها الإليريون والتراقيون ، وربما كانت لهم صلوات في الدم بالدورين الذين فتحوا البلوپونيز . وكان حكامها الأشراف يدعون أنهم من نسل اليونان (ومن أبناء هرقل نفسه) ، وكانوا يتكلمون لهجة يونانية . وكانت عاصمتهم الأولى إدسا Edessa تقع فوق هضبة واسعة بين السهول الممتدة إلى إپيروس وسلاسل الجبال التي تصل إلى بحر إيجه . وكان إلى الشرق منها مدينة پلا Pella التي أضححت فيما بعد عاصمة فليب والإسكندر ، وبالقرب من البحر مدينة پدنا ، التي هزم فيها الرومان المقدونيين الفاتحين وكسبوا بعد هذه المزميمة حق نقل حضارة اليونان إلى العالم الغربي .

تلك إذن هي البيئة التي كانت تحيط ببلاد اليونان : حضارات كحضارة مصر وكريت وبلاد النهرين أهدت العناصر الفنية في الصناعة ، والعلوم ، والفن ، فاستحالت على أيدي اليونان إلى أزهى صورة في التاريخ ؛ وإمبراطوريات كبلاد فارس وقرطاجنة تؤثر فيها منافسة التجارة اليونانية ، وينضم بعضها إلى بعض لمحاربة اليونان وجعلها ولاية خاضعة لسلطانها غير قادرة على أذاها ؛ وإلى الشمال جموع حربية النزعة ، تتكاثر دون تفكير في العواقب ، وتنقل في قلق واضطراب ، وتعب بعد زمن قد يقصر وقد يطول الحواجز الجبلية القائمة بينها وبين بلاد اليونان ، وتفعل بها ما فعله اللوريون من قبل فتمزق ما سماه شيشرون الإطار اليوناني الموشى به الثوب الممجى^(١٥) ، وتدمر حضارة لا تفقه لما معنى . ولما كانت هذه الأمم المحيطة ببلاد اليونان تعنى بما كان يعده اليونان جوهر الحياة وأعلى ما فيها ألا وهو الحرية - حرية الحياة والتفكير ، والقول والعمل . وكان كل شعب من هذه الشعوب ، عدا الفينيقيين ، يزرع تحت حكم الطغاة المستبدين ، ويسلم أرواح بنيه إلى الخرافات والأوهام ، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية أو الحياة العقلية . وهنا هو السبب الذي حدا باليونان إلى أن يطلقوا عليهم بلا تمييز بينهم اسم البربر *barbaroi* أى الممجى ، فالممجى في اعتقادهم هو الذي لا يرضى بالاعتقاد دون تفكير ، والذي يعيش مسلوب الحرية . ثم تتنازع الفكرتان - صوفية الشرق وعقلية الغرب - آخر الأمر جسم بلاد اليونان وروحها ، فتتصر العقلية في عهد بركليز ، كما انتصرت في عهد قيصر ، وليو العاشر ، وفرديريك ؛ ولكن الصوفية كانت تعود على اللوام . وتبادل النصر بين هاتين الفلسفتين المكلمة كلتاها للأخرى هو الذي تتكون منه أهم المراحل في قصة الحضارة الغربية .

الفصل الثاني

أرجوس

وأخذت بلاد اليونان الصغيرة تمد رقعتها داخل هذه الدائرة من الأمم المحيطة بها حتى لم يكذب بقى جزء من شاطئ البحر المتوسط لم يعمره أبناؤها . ذلك أن اليد الهزيلة التي مدت أصابعها الرفيعة إلى البحر نحو الجنوب لم تكن إلا جزءاً صغيراً من بلاد اليونان التي يعيننا تاريخها في هذا الكتاب ؛ فقد انتشر اليونان ، الذين لا تصدهم عن غرضهم عقبات مهما قويت في أثناء تطورهم ونمائهم ، في كل جزيرة من جزائر بحر إيجه ، وإلى كريت وقبرص ، وإلى مصر وفلسطين ، وسوريا ، وما بين النهرين ، وآسية الصغرى ، وإلى بحر مرمرة والبحر الأسود ، وإلى شواطئ بحر إيجه وشبه الجزيرة الممتدة منه ، وإلى إيطاليا ، وغالة ، وصقلية ، وإلى شمال أفريقية . وقد أنشأوا في هذه الأقاليم جميعها دول مستقلة متفرقة ولكنها يونانية ، تتكلم اللغة اليونانية وتعبد الآلهة اليونانية ، وتكتب الآداب اليونانية وتقرأها ، وتقوم بنصيبها في تقدم العلوم والفلسفة اليونانية ، وتمارس الديمقراطية على الطريقة اليونانية الأرسقراطية . وهم حين هاجروا من بلاد اليونان لم يتركوا مواطنهم الأصلي وراءهم ؛ بل حملوه معهم ، حتى أرضه نفسها ، أينما ذهبوا ، وقد جعلوا حوض البحر المتوسط بحيرة يونانية ومركزاً للعالم ، ودام على هذا الوضع قرابة ألف عام .

وأصعب ما يواجه مؤرخ الحضارة اليونانية القديمة ويشط هتمته هو أن يؤولف من هذه الأعضاء المتفرقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة

وقصة متصلة الأجزاء(*) . وسنحاول أن نفعل هذا بتلك الطريقة الشيقة طريقة الطواف في رحلة هذه الأجزاء . وسنضع أمامنا في خلال هذه الرحلة خريطة ، لا تكلفنا غير قليل من الخيال ، وسنتقل من مدينة إلى مدينة في العالم اليوناني ، وندرس في كل مركز من هذه المراكز حياة الأهلين قبل الحرب الفارسية - أساليبهم الاقتصادية والحكومية ، ونشاط علمائهم وفلاسفتهم ، وما أشدوه من الشعر وما أنتجوه من الفنون(**) . ولنا نذكر أن في هذه الطريقة عيوباً كثيرة : فالتتابع الجغرافي لن يتفق كل الاتفاق مع السياق التاريخي ، وسنضطر في هذه الرحلة إلى أن نقفز من قرن إلى قرن ومن جزيرة إلى جزيرة ، وسنجد أنفسنا نتحدث إلى طاليس وأنكسمندر قبل أن نصغي إلى هومر وهزiod . ولكننا لا يضيرنا قط أن نرى الإلياذة وما فيها من فحش في ضوء التشكك الأيوني ، أو أن نستمع إلى شكاية هزiod الشديد بعد أن زار المستعمرات الأيونية التي جاء منها والده المهوك . وسنحيط بعض الإحاطة ، حين نصل في آخر رحلتنا إلى أثينة ، بالنواحي الكثيرة الاختلاف لتلك الحضارة التي ورثتها والتي حافظت عليها ببسالة في مرون .

وإذا بدأنا رحلتنا من أرجوس حيث أقام الدوريون المتصرون حكمهم ، وجدنا أنفسنا في إقليم يوناني خالص : في سهل غير مسرف في خصبه ، ومدينة صغيرة مهوشة النظام ، ذات بيوت صغيرة من الآجر والجص ، وهيكل

(*) « إن كتابة تاريخ بلاد اليونان في كل عصر من عصوره إلا القليل النادر منها من غير أن يتشقت اهتمامنا عمل من أصعب الأعمال ... ذلك أنه لا توجد وحدة دائمة متصلة أو مركز ثابت نستطيع أن نخضع له أعمال الدول اليونانية المتعددة وأهدافها » بيوري Bury من كتاب « المؤرخون اليونان الأقدمون » .

(**) سنقص التاريخ المعاري للمدن اليونانية الصغرى في هذه الفصول (الكتاب الثاني) حتى وفاة الإسكندر (٣٢٣) ، وذلك لكي فتحاشي العودة مراراً كثيرة إلى المكان الواحد .

على تلها ، وملهى في الهواء الطلق على سفح ذلك التل ، وقصور متواضعة في أماكن منها متفرقة ، وأزقة ضيقة ، وشوارع غير مرصوفة ، وعلى بعد منها البكر الجميل الخذاب المصطرب الأمواج . ذلك أن بلاد اليونان إنما تتكون من جبال وبحار ، والمناظر الجميلة الفخمة عادية فيها مألوفة إلى حد يجعل اليونان لا يعنون بذكر ذلك الجمال في كتبهم وإن كان يستحوذ على قلوبهم ويوحى إلى عقولهم . وشتاء البلاد بارد مطير ، وصيفها حار جاف ، وأهلها يزرعون في الخريف ويحصدون في الربيع ؛ والمطر فيها نعمة وبركة ، وزيوس مرسل المطر إله الآلهة . وأنهاها قصيرة ضحلة ، تتحول إلى سيول جارفة في فصل الشتاء ، وتجف حتى تظهر الحصياء في قيعانها في حر الصيف . ولقد كان على طول الشاطئ اليوناني مائة مدينة في حجم أرجوس وشبيهة بها ؛ وألف مدينة أخرى تشبهها ولكنها أقل حجماً منها ، وكلها ذات سيادة تغار على سيادتها ، يفصل كل واحدة عن الأخرى ما بينها من خصام شديد أو مياه خطيرة ، أو تلال عديمة المسالك .

ويعزو أهل أرجوس منشأ مدينتهم إلى أرجس البيلاسجي ، البطل ذى المائة العين ، كما يعزون ازدهارها الأول إلى رجل مصري يدعى دانوس Danaus قدم إليها على رأس جماعة من « الدنائين » ، وعلم الأهلين طريقة لإرواء حقولهم من الآبار . وليس من حقنا أن نسخر من هذه الأسماء الخيالية ، فقد كان اليونان يفضلون أن تنتهى بالأساطير تلك التواريخ الطويلة التي تنتهى عندنا نحن إلى الجهل والغموض . وقد أصبحت أرجوس ، تحت حكم تمنوس أحد الهرقلين الذين عادوا إليها ، أقوى المدن اليونانية بأجمعها ، وأخضعت لسلطانها تيريز ، وميسيني وجميع الأراضي المحيطة بها . واستولى على زمام الحكم فيها حوالي عام ٦٨٠ أحد أولئك tyranoi ، الذين أصبح حكمهم الطراز المألوف في كبريات المدن اليونانية طوال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد . ولعل هذا الطاغية المسمى فيدون Pheidon قد استولى على الحكم ،

كما استولى عليه أمثاله من الطغاة ، بأن تزعم طبقة التجار الآخذة قوتها في الازدياد بعد أن ضموا إليهم العامة مؤقتاً ليسهل عليهم الوصول إلى غرضهم - وهو مقاومة سلطان الأشراف ملاك الأراضي . ولما هددت إيدروس وأئينة سندية إبي - حف ، فزادوا لها عدتها واستولى عليها لنفسه . وراشعمل فيسرتة نظريته المرارين وانكايل الببيلة - ولعله أخذها عن الفينيقيين - كما استخدم نظام النقد الليدى الذى تضمنته الدولة . وأنشأ دار الضرب فى إيشينه وأضحت « السلاحف » (أى قطع النقد المنقوش عليها رمز الجزيرة) أول عملة رسمية فى بلاد اليونان القارية (١٦) .

وكان حكم فيدون الاستبدادى المستنير بداية عصر من الرخاء جاء إلى أرجوس وما حوفا بكثير من الفنون حتى كال موسيقيو أرجوس أشهر الموسيقيين فى بلاد اليونان كلها فى القرن السادس قبل الميلاد (١٧) ، ومن هؤلاء لاسوس Lasus الهرميونى (Hermione) الذى اشتهر بين الشعراء الغنائيين فى عصره ، والذى أخذ عنه بندار Pindar مهارته فى هذا الضرب من الشعر . ورواياته مع أساس مدرسة النحت الأرجوسية التى أهدت إلى الفن اليونانى بديعته . كما أهدت إليها قواعد الفنىة ، ووجد التمثيل موطئاً له فى تلك المدينة حيث أنشئت له دار تحتوى على عشرين ألف مقعد ، وشاء المهندسون فيها هيكلاً هيبراً ، التى كانت تحبها أرجوس ، وتخصها بعبادتها ، وتعدها العروس الإلهة التى تتجدد بكارتها فى كل عام (١٨) .

لكن ما أصاب حلفاء فيدون من ضعف وفساد - هما نعمة الملكية - بالإضافة إلى الحروب المتعاقبة الطوال مع اسبارطه ، أوهرن أرجوس ، واضطرها إلى أن تتخلى عن زعامة الپللوپونيز إلى السديمونيين Lacedaemonians . وهى اليوم بلدة هادئة تخفى معالمها بين ما يحيط بها من حقول ، ولا تذكر إلا قليلاً عن مجدها الغابر ، وتفخر بأن أهلها لم يهجروها قط فى أثناء تاريخها الحافل الطويل .

الفصل الثالث

لكونيا

في جنوب أرجوس ، وعلى مسافة بعيدة من البحر ، يشاهد السائح قلل سلاسل جبال البرنون Parnon ، وهي قلل جميلة المنظر ولكن أجمل منها في العين نهر يوروتاس Eurotas الذي يجري بينها وبين سلسلة تيجتوس في الغرب ، وه أكثر منها ارتفاعاً وأشد قتماً وتكلكل أعلاها الثلوج . وفي الوادي المعرض لقمع الزلازل يمتد « تجويف لسديمون » ، وهو سهل منبسطة تحميه التلال من جميع جوانبه بحيث لا تحتاج حاضرتة اسبارطة إلى أسوار تحميها . وكانت اسبارطة « المبعثرة » في ذروة مجدها تتكون من خمس قرى منضمة بعضها إلى بعض يعمرها حوالي سبعين ألف نسمة . أما اليوم فهي قرية صغيرة لا يزيد سكانها على أربعة آلاف ، ولا يكاد يبقى شيء حتى في متحفها الصغير ، من تلك المدينة التي حكمت فيما مضى بلاد اليونان وكانت سبباً في خرابها .

١ - توسع اسبارطة

ولقد سيطر الدوريون من هذا الحصن الطبيعي المنيع على جنوبي الپلوبيونيز واستعبده . وكان هؤلاء الشماليون ذوو الشعر المرسل الطويل ، الذين قوت حياة الجبال أجسامهم وضرستهم الحروب ، كان هؤلاء الأقوام يرون أن الحياة إما فتح أو استرقاق ولا ثالث لها . وكانت الحرب عملهم المألوف يحصلون بها على رزقهم الشريف في ظنهم ، كما كان غير الدوريين من أهل البلاد الذين أضعفهم اشتغالهم بالزراعة وطول عهدهم بالسلم في حاجة ملحة إلى سادة ته آون أمه وهم ريسيطرون عنهم . وكان أول ما فعله ملرك اسبارطة ، الذين

يدعون أنهم من سلالة الهرقليين الذين وفدوا إلى البلاد منذ عام ١١٠٤ ، أن أخضعوا سكان لكونيا الأصليين ثم هاجموا مسينيا Messinia . وكانت تلك الأراضي الممتدة في الطرف الجنوبي الغربي من البلوبونيز مستوية وخصبة إذا قيست إلى سائر أجزاء شبه الجزيرة ، وتقوم بحربها قبائل هادثة مسالمة . ويقص علينا بوسنياس كيف ذهب أرستوديموس Aristodemus ملك مسينيا إلى مهبط الوحي في دلفي ليستشيريه في الوسائل التي يستطيع بها أن يهزم الإسبارطيين ، وكيف أمره أبلو أن يضحى بعذراء يجري في عروقها دمه الملكي ، وكيف قتل ابنته هو وخسر الحرب^(١٩) (وربما كان سبب خسارته أنه كان مخطئاً في اعتقاده أنه قتل ابنته) ، وكيف قاد أرستيمينس Aristomenes الشجاع الميسينيين بعد جيلين من ذلك الوقت في ثورة جامحة على حكامهم الفاتحين ، وكيف ظلت مدنهم تسع سنين صابرة على الهجوم والحصار ولكن الإسبارطيين ظفروا بهم آخر الأمر ، فأخضعوا الميسينيين وفرضوا عليهم جزية سنوية تعادل نصف محصولاتهم ، وساقوا نصف عددهم وضموهم إلى أقتان هيلوت Helot :

والصورة التي ترسم في مخيلتنا للمجتمع اللكوني قبل ليقورغ تتكون ، كما تتكون بعض الصور الملونة القديمة ، من ثلاث طبقات ، العليا منها هي طبقة السادة الدوريين ، ويعيش معظمهم في إسبارطه على منتجات الحقول التي يملكونها في الريف والتي يجرثها لهم الهيلوتيون (الأرقاء) . وكان بين هاتين الطبقتين من الوجهة الاجتماعية ، ويحيط بهما من الوجهة الجغرافية ، طبقة البريئيسيين Perioeci (الساكنين حولهم) ، وهم قوم أحرار يسكنون في مائة قرية أو على تخوم لكونيا ، أو يشتغلون بالتجار أو الصناعة في المدن ، يؤدون الضرائب ويخدمون في الجيش ولكنهم لا نصيب لهم في حكم البلاد ، وليس لهم حق الزواج من الطبقة الحاكمة . وكانت أحط الطبقات وأكثرها عدداً طبقة الهيلوتيين ، وقد سموا بهذا الاسم -

- على حد قول استرابون - نسبة إلى مدينة هيلوس ، وكان أهلها من أول من استعبدهم الاسبارطيون^(٢٠) . وقد استطاعت اسبارطة بالغزو السافر لسكان لكونيا من غير الدورين أو باستيراد أسرى الحرب أن تجعل لكونيا بلداً يعمرها نحو ٢٢٤ر٠٠٠ من الهيلوتين ، ١٢٠ر٠٠٠ من البريثيسين ، ٣٢ر٠٠٠ رجل وامرأة وطفل من طبقة المواطنين^(*)(٢١) ٥

وكان الهيلوتيون يتمتعون بجميع الحريات التي يستمتع بها أقتان الإقطاع في العصور الوسطى ، فكان للواحد منهم أن يتزوج كيف شاء ، وأن يكون له أبناء لا يهتم بعددهم أو ماسوف يوؤل إليه أمرهم ، ويستغل الأرض بطريقته هو ، ويعيش في قريته مع جبرته ، لا يقلقه مالك أرضه الغائب عنها ، ما دام يؤدي إلى هذا المالك بانتظام لإبجارها الذي حددته لها الحكومة . وكان هذا الفن مرتبطاً بالأرض ولكن مالكتها لم يكن في مقدوره أن يبيعه أو يبيعها وكان في بعض الحالات يؤدي خدمات منزلية في المدينة ؛ وكان ينتظر منه أن يقوم على خدمة سيده في الحرب ، وأن يحارب دفاعاً عن الدولة إذا ما طلب إليه أن يحارب من أجلها ، فإذا أبلى في الحرب بلاء حسناً فقد ينال حرته . ولم تكن حاله الاقتصادية في الظروف العادية أسوأ من حال المزارعين القرويين في سائر أجزاء اليونان الخارجة عن أتكا ، أو الفعلة غير المهرة في مدينة من المدن الحديثة . وكان مما يخفف عنه عبء الحياة مسكنه الذي يملكه ، وعمله المتنوع ، وما حوله من حقول وأشجار هادئة تؤنسه وتعينه على عيشه ؛ ولكنه كان من الناحية الأخرى معرضاً على الدوام لأن تطبق عليه القوانين العسكرية ، وأن تفرض عليه رقابة الشرطة السرية تقتله في أية لحظة من غير سبب أو محاكمة .

وكان الساذج في لكونيا كما كان في غيرها من بلاد العالم يؤدي الجزية إلى الشاطر الماكر : وتلك عادة لها ماض قديم مبجل ومستقبل ميمر بطول البقاء .

(•) هذه الأرقام بطبيعة الحال ظنية كلها ، تستند إلى إشارات قليلة وفروض كثيرة .

وسبب ذلك أن طيبات الحياة في أكثر الحضارات تأتي بها وتنظم تصرفها عملية البيع والشراء الهادئة السوية : فالشاطر الماكر يجعلنا على أن ندفع في الكماليات التي لا يتيسر مضاعفتها وفي الخدمات التي يؤديها لنا أكثر مما نستطيع الساذج أن يحصل عليه في نظير ما ينتجه من الضرورات التي يسهل إنتاجها وتعويض ما يستهلك منها . أما في لكونيا فقد توصل بعضهم إلى تركيز الثروة في أيديهم بوسائل بادية للعين منفرة ، ملأت قلوب الهيلوتيين غيظاً بلغ من الشدة حدّاً جعل اسبارطة في كل عام تقريباً مهددة بالثورات التي تعرض كيان الدولة لأشد الأخطار .

٢ - عصر اسبارطة الذهبي

كانت اسبارطة في هذا الماضي الغامض قبل أن يأتيها ليقورغ مدينة كسائر المدن اليونانية ازدهر فيها الفن والأغاني كما لم يزهرا قط بعد أيامه . وكانت الموسيقى أكثر الفنون انتشاراً فيها وهي قديمة فيها قدم السكان أنفسهم ، ذلك أننا مهما أوغلنا في القدم نجد اليونان يغنون . وإذا كان تاريخ اسبارطة لا تنقطع منه الحروب فإن موسيقاها قد اصطفت بالصيغة العسكرية - وكان أسلوبها هو « الأسلوب الدوري » البسيط القوي . أما غيره من الأساليب الموسيقية فلم يكن يثبط فحسب ، بل كان كل خروج عن هذا النمط الدوري يعاقب عليه القانون ؛ وحتى تريندر نفسه Terpander ، وهو الذي أخذ بأغانيه فتنة قامت في المدينة ، قد حكم عليه الإفوريون(*) بغرامة وسمرت فيثارته في جدار لأنه جرؤ على أن يزيد على أوتارها وترّاً جديداً لتنسجم نغماتها مع صوته ؛ ولم يسمح لتيموثيوس Timotheus في عهد آخر من عهودها بأن يشترك في المباريات

الاسبارطية إلا بعد أن نزع بأمر الإفوريين ما أضافه من الأوتار الشائنة المرذولة على قيثارة تريندر وكان قد زاد هذه الأوتار من سبعة إلى أحد عشر (٢٣) .

وقد وجد في اسبارطة ، كما وجد في إنجلترا ، مؤلفون عظام في الموسيقى ، حين كانت تستورد هولاء المؤلفين من خارجها ؛ فقد استدعت حوالى عام ٦٧٠ تريندر من لسيبس بأمر الوحي في دلفي ، حسب زعمهم ، ليعد مباراة في الغناء الجماعى في الاحتفال بعيد كرنيا Carneia . وكذلك استدعى ثاليتاس Thaletas من كريت حوالى عام ٦٢٠ كما استدعى بعد ذلك بقليل تريتوس Tyrteus ، وألكمان Alcman ، وپلمنستوس Polymnestus . وقد وجه هولاء معظم جهودهم لوضع ألحان وطنية وتدريب الفرق على إنشادها . وقبلما كانت الموسيقى تعلم للأفراد من الاسبارطيين (٢٤) ، فقد بلغت الروح الشيوعية فيها ، كما بلغت في روسيا الثورية ، من القوة درجة جعلت الموسيقى تنزع فيها نزعة جماعية ، وكانت الجماعات فيها تتبارى في إقامة حفلات الغناء والرقص الفخمة . وأتاحت هذه الأغاني الجماعية للاسبارطيين فرصة أخرى للتدريب ولتنظيم الجماهير ، لأن كل صوت في الغناء كان خاضعاً للرئيس . ولم يشذ الملوك أنفسهم عن هذا الخضوع ، فقد حدث في احتفال الهياثيا Hyacinthia أن غنى الملك أجلسوس في الزمان والمكان اللذين عينهما له رئيس الفرقة . وكان الاسبارطيون على بكرة أبيهم ، كبيرهم وصغيرهم ، رجالهم ونساؤهم ، يشتركون أثناء الاحتفال بعيد الجمونويديا Gymnoidia في تمارين رياضية جماعية ورقص متناسق وغناء . وما من شك في أن هذه المناسبات كانت باعثاً قوياً للشعور الوطنى ، ومصرفاً ينصرف فيه ما يتأجج في الصلور من هذا الشعور .

وكان تريندر رأى « مطرب الناس » أحد أولئك الشعراء الموسيقيين الناهين الذين بدأ بهم عصر ليسيوس المجيد في الجليل الذى سبق سافو . وتعزو إليه الرواية المأثورة اختراع أناشيد الشراب المعروفة باسم اسكوليا scolias

وزيادة أوتار القيثارة من أربعة إلى سبعة ؛ ولكن القيثارة ذات السبعة الأوتار كانت ، كما سبق القول ، قديمة قدم ميتوس ، أكبر الظن أن الناس كانوا يتغنون بفصائل الخمر في شباب العالم الذي جر عليه النسيان ذيله ، والذي لا شك فيه أن تريندر قد ذاع صيته في لسبوس وعرف فيها بأنه مؤلف المقطوعات الغنائية الموسيقية ومغنيا . ولما أن قتل رجلا في مشاجرة ، نفي من هذه المدينة ورأى من مصلحته أن يقبل دعوة جاءته من اسبارطة بالذهاب إليها . ويُلوح أنه أقام فيها بقية أيام حياته يعلم الموسيقى ويدرب الفرق الغنائية . ويقال لنا إنه قضى نجه في مجلس شراب : فيينا هو يغنى - ولعله كان يغنى النغمة التي أضافها في أعلى السلم الموسيقي - قذفه أحد السامعين بيتنة ، فدخلت في فمه ، وفي قصبته الرئوية ، فسدت مسالك التنفس ، وقضت عليه وهو في نشوة الغناء (٢٥) .

وواصل ترتيوس عمل تريندر في اسبارطة في أثناء الحرب الميسينية الثانية ؛ وقد جاءها من أفدنا Aphidna - وقد تكون في لسيدمون ، وقد تكون وهو الأرجح في أتكا . والذي لا شك فيه أن الأثينيين كانوا يروون فكاهة قديمة عن الأسبارطيين ، وهي أنهم حين كانت الدائرة تدور عليهم في الحرب الثانية أنجاهم من الهزيمة الماحقة معلم أتكسي أعرج أيقظت أغانيه الأسبارطيين الحاملين وبعثت في قلوبهم الشجاعة فانتصروا بذلك على أعدائهم (٢٦) . وجلى أنه كان ينشد أغانيه في المجتمعات العامة بمصاحبة الناي ، وهو يعمل لتبديل الموت الحربى بالمجد الذى يحسد عليه . وقد جاء في إحدى القطع الباقية من أغانيه : « ما أجل أن يموت الرجل الشجاع في الصف الأول من المجاهدين في سبيل أوطانهم ؛ ألا فليثبت كل إنسان في مكانه واقفاً على قدميه لا يترحزح عن موقفه ؛ ولبعض على نواجذه وليضم كل إنسان قدمه إلى قدم زميله ، ولتلاحق الدروع ، ولتختلط الرياش المتماوجة ، والحورذ المتلاطمة ، وليتقدم المقاتلون متلاصقين كالبيان المرعبوس ، تلتاق في معمعان القتال نضال سيوفهم وأسنه رماحهم (٢٧) » . ويقول

ليوننداس ملك اسپارطة إن ترتيوس « كان رجلاً بارعاً في إثارة حمية الشباب (٢٨) » .

وغنى ألكال لأهل ذلك الجليل نفسه ، وكان صديقاً لرتيوس ومنافساً له ، ولكن غناؤه كان أكثر تنوعاً من غناء صديقه وأقرب منه إلى مطالب هذه الحياة الدنيا . وكان موطنه الأصلي ليديا البعيدة . ويقول بعضهم إنه كان عبداً ولكن اللسديمونيين رحبوا به لأنهم لم يكونوا قد تعلموا كراهية الأجنبي التي أصبحت فيما بعد جزءاً من قانون ليقورغ . ولو أنه قد عاصر الاسبارطيين المتأخرين لرأوا في مدائحهم في الحب والطعام وتعداده لأصناف الخمر الكونية مسبة لهم . وتصفه الرواية التاريخية بأنه أشد الأقدمين شراً وشغفاً بالنساء . وهو يقول في إحدى أغانيه إنه كان سعيد الحظ لأنه لم يبق في سرايس ، وإلا لبحيت خصينته وأصبح من كهنة سييل ، بل جاء اسپارطة حيث يستطيع أن يحب بكامل حريته حبيته مجالسترانا *Megalostrata* ذات الشعر الذهبي (٢٩) . وبه تبدأ أسرة الشعراء العشاق التي تفتى بأنكريون ، وهو حامل لواء « التسعة الشعراء الغنائيين » الذين اختارهم النقاد الإسكندريون ووصفهم بأنهم أحسن شعراء بلاد اليونان القديمة (*) ؛ ولقد كان في وسعه أن يكتب ترانيم وتهليل ، وخمريات وغزلا ، وكان أحب شيء إلى الاسبارطيين ما وضعه من المقطوعات لتغنيها البنات مجتمعات . وإنا لنجد في هذه الأغاني من حين إلى حين قطعاً تكشف لنا عن قوة الشعور الخيالي التي هي جوهر الشعر وأساسه :

« لقد استغرقت في النوم قتل الجبال ومسايلها ، وشعابها ، وخزانقتها ، والزواحف التي تخرج من الأرض السوداء ، والوحوش التي تربص على

(*) ألكان ، أليوس *Alcaeus* ، سفو ، استيكورس ، إيكس ، أنكريون ، سميدس ، بندار ، بكليدس .

سفوح التلال ، وثول النحل ، والحيوانات المهولة في قاع البحر الأرجواني ، استغرقت كلها في النوم ، ومعها أسراب الطيور المجنحة (٣٠) .

ولنا أن نستنتج من وجود هؤلاء الشعراء أن الاسپارطيين لم يكونوا اسپارطيين على الدوام ، وأنهم لم يكرنوا في القرن السابق لليقورغ أقل شغفاً بالشعر والفنون الجميلة من سائر اليونان ؛ ولقد أضحت الأغاني الجماعية من الخواص الوثيقة الصلة بهم ؛ ولما أن أراد كتاب المسرحيات الأثينيون أن يكتبوا أغاني جماعية لمسرحياتهم ولم يروا بدأ من أن يكتبوها باللهجة الدورية ، مع أنهم كتبوا الحوار باللهجة الأتيكية . وليس من السهل علينا أن نقول أى الفنون الأخرى قد ازدهرت في لسديمون في تلك الأيام ، أيام الهدوء والاطمئنان ، لأن الاسپارطيين أنفسهم قد غفلوا عن تأريخ تلك الأيام والاحتفاظ بتاريخها إن كانوا قد سجلوه ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن الفخار والبرنز اللكونيين قد اشتهرا في القرن السابع ، وإن الفنون الصغرى قد أخرجت كثيراً من الكماليات التي تستمتع بها الأقلية المحظوظة . لكن هذه النهضة القصيرة الأجل قضت عليها الحروب المسيانية . فقد وزعت الأراضي المفتوحة على الاسپارطيين ، وكاد عدد الأقتان أن يتضاعف نتيجة لهذا التوزيع . وكيف يستطيع ثلاثون ألفاً من المواطنين أن يخضعوا على الدوام أربعة أمثالهم من البرثيسيين وسبعة أمثالهم من الهيلوتيين ؟ إنهم

(*) ما أشبه هذه الأغنية « بأغنية الجائل الليل » بلحيتة . كان إحساساً واحداً قد جمع بين شاعرين بين أحدهما والآخر نعمة وعشرون قرناً من الزمان :

فوق قلل انتلال كلها

ساد السكون الآن

وفي أعالي الأذجار جيهها

لا تكاد تستمع

إلى نفس يهب .

إن الطيور نائمة بين الأغصان ،

على رسلك ، إنك أنت الآخر

لن تلبث حتى تستريح مثلها

لا يستطيعون ذلك إلا إذا نفذوا أيديهم من ممارسة الفنون ومناصرتها ، وجعلوا من كل اسبارطى جندياً شاكى السلاح مستعداً على الدوام لقمع الثورات أو السير إلى ميدان القتال . ولقد بلغوا هذه الغاية بفضل دستور ليقورغ ، ولكن هذا الدستور نفسه قد أخرج اسبارطة من تاريخ الحضارة بكافة معانيها اللهم إلا معناها السياسي وحده .

٣ - ليقورغ

يعتقد المؤرخون اليونان اعتقاداً لا يقبل الجدل أن ليقورغ هو واضع شرائع اسبارطة ، كما يعتقدون أن حصار طروادة وقتل أجمنون من الحقائق التاريخية المسلم بصحتها . وكما أن العلماء المحدثين قد ظلوا مائة عام كاملة ينكرون وجود طروادة وأجمنون ، فلنهم اليوم يرددون في الاعتراف بأن ليقورغ شخص واقعي كان له وجود في التاريخ . وتختلف الترايخ التي يحددها له من يؤمن بوجوده منهم ما بين ٩٠٠ ، ٦٠٠ ق . م ، وكيف يستطيع رجل واحد أن يبتدع أعجب وأبغض طائفة من الشرائع في التاريخ كله ثم لا يفرضها في سنين قليلة على شعب خاضع مغلوب فحسب بل يفرضها كذلك على الطبقة الحاكمة ذات النزعة العسكرية صاحبة الإرادة القوية (٣٣) ؟ ولكننا رغم هذا إذا رفضنا رواية يأخذ بها جميع المؤرخين اليونان اعتماداً منا على هذه الأسباب ، نكون متجنين على الحقيقة والتاريخ . لقد كان القرن السابع قبل الميلاد عصر المؤرخين الأفراد - زلوكس Zleucus في لكريس الإيطالية (حوالي ٦٦٠) ، وديريكو Draco في أثينة (٢٦٠) ، وكرانداس Charondas في قطانا بصقلية (حوالي ٦١٠) - دع عنك كشف بوشع لشرائع موسى في هيكل أورشليم (حوالي ٦٢١) . ولعل الحق في الحالات السالفة الذكر أن هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل بعينه بل كانت طائفة من العادات

نسقت وصيغت - حتى صارت قوانين معينة محددة ، سميت من قبيل التيسير باسم الرجل الذى جمعها وقتها وأبرزها فى معظم الأحيان فى صورة شرائح مكتوبة(*) . وسوف نسجل فى هذا الكتاب الرواية المتواترة كما وصلت إلينا على أن نذكر مع ذلك أنها فى أغلب الظن تجسيد وتصوير لعملية طويلة تطورت فيها العادات حتى صارت قوانين على يد عدد كبير من المؤلفين دأبو على العمل كثيراً من السنين .

ويقول هيرودوت (٣١) إن ليقورغ ، عم الملك كاريلوس Charilaus ملك اسپارطة ووليه ، تلقى من الوحى فى دلنى بعض مراسم ، يصفها البعض بأنها قوانين ليقورغ نفسها ، ويصفها البعض الآخر بأنها تصديق ربانى على القوانين التى اقترحها هو . ويبدو أن المشترعين قد أحسوا أن أمن طريقة لتغيير بعض العادات القائمة أو إدخال عادات جديدة هى أن يعرضوا ما يريدونه فى الحالىن على أنه أوامر من عند الله ؛ ولم تكن هذه أول مرة أقامت الدولة قواعدها فى السماء . وتضيف الرواية إلى هذا أن ليقورغ سافر إلى كريت ، وأعجب بنظمها ، واعتزم أن يدخل بعضها فى لكونيا (٣٥) ؛ وقبل الملوك ومعظم النبلاء إصلاحاته على مضض لأنهم رأوا أن لا بد لهم منها إذا أرادوا أن يضمّنوا لأنفسهم السلامة والطمأنينة ؛ ولكن أحد الشبان الأشراف ، واسمه الكمندر ، قاوم هذا الإصلاح شديدة عنيفة وفقاً لإحدى عيني المشترع نفسه . ويقص أفلو طرخس هذه القصة بأسلوبه السلس الساحر ؛

ولم يثبط هذا العمل عزيمة ليقورغ أو يضعف همته ، بل سكت وكشف لمواطنيه عن وجهه المشوه وعينه المفقوءة . واستولى عليهم الحجل والملح من هذا المنظر فجاءوه بالكمندر ليعاقبه على فعلته فشكر لهم ليقورغ ما فعلوا ، وصرفهم عن آخرهم ، ولم يستبق منهم إلا الكمندر ، ثم أخذه معه

(*) ويقال إن ليقورغ قد نهى الناس عن كتابة قوانينه .

إلى منزله ، ولم يقل له كلمة نابية أو يوقع عليه أى عقاب ، بل . . . أمره أن يقف فى خدمته وقت الطعام . وكان الشاب ذا خلق كريم فقام بكل ما كان يؤمر أن يقوم به دون أن يتذمر أو يتململ ، وبذلك أتاحت له الفرصة لأن يعيش مع ليقورغ فيلاحظ فيه فضلاً عن رفته وهدهوء طباعه استقامة لا عهد له بها ، وجداً وصبراً على العمل ، وأصبح الشاب من أشد الناس إعجاباً به وقد كان من قبل من ألد أعدائه ، وقال لأصدقائه وأقاربه إن ليقورغ لم يكن ذلك الرجل البكد السيئ الطباع كما كانوا يظنون ، بل إنه دون غيره الرجل الظريف الرقيق الحاشية فى العالم كله .

ولما أتم ليقورغ قوانينه ، أخذ على الأهلىن عهداً (ولعل هذه زيادة خرافية زيدت على قصته) ألا يبدلوا فى القانون شيئاً قبل أن يعود إليهم . ثم سافر إلى دنلى ، واعتزل العالم ، وحرّم على نفسه الطعام حتى مات « ظننا منه أن الواجب يقضى على السياسى أن يجعل موته إذا استطاع عملاً يخدم به الدولة (٣٧) » .

٤ - دستور لسديمدينيا

وإذا أردنا أن نحدد بالضبط إصلاحات ليقورغ ، وجدنا الروايات التاريخية مضطربة متناقضة ، حتى يصعب علينا أن نقول أى عناصر القوانين الاسبارطية سبقت ليقورغ ، وأنها من وضعه هو أو من وضع الجليل الذى كان يعيش فيه ، وأنها أضيفت إليها بعد أيامه . فأما أفلوطرخس ويليبيوس (٣٨) فيؤكدان لنا أن ليقورغ أعاد تقسيم أراضى لكونيا ثلاثين ألف قسم متساوية ووزعها على المواطنين ؛ وأما توكيديديس (٣٩) فيفهم من أقواله أن تقسيماً من هذا النوع لم يحدث قط ، ولعل الذى حدث فعلاً أن الأملاك القديمة لم تمس وإنما وزعت الأراضى التى استولوا عليها حديثاً توزيعاً متساوياً . وألغى ليقورغ (أو واضعوا الدستور المنسوب إليه) ،

كما فعل كليستينز السكيوني وكليستينز الأثيني ، نظام المجتمع اللكوني القائم على صلة القرابة ، واستبدل به أقساماً جغرافية ، وبهذا تحطم سلطان الأسر القديمة ، وأُنشئ نظام أرسقراطي واسع النطاق . وأراد ليقورغ أن يمنع هذه الأبحرية مالكة الأرض من أن تقضى عليها طبقات التجار ونحوها التي كانت تسير سيراً حثيثاً نحو مركز الزعامة في أرجوس ، وسكيون ، وكورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، فحرم على المواطنين أن يشتغلوا بالصناعة ، أو التجارة ، ومنع استيراد الفضة والذهب ، وأمر ألا يستخدم في سك العملة غير الذهب وحده . ذلك بأنه قد وطلد العزم على أن يتفرغ الاسبارطيون (المواطنون ملاك الأرض) إلى شئون الحكم والحرب .

وكان مما يفخر به المحافظون الأقدمون^(٤٠) أن دستور ليقورغ قد دام عهداً طويلاً لأن أنظمة الحكم الثلاثة : الملكية ، والأرسقراطية ، والديمقراطية قد اجتمعت كلها فيه ، واجتمعت بنسب تمنع طغيان أى عنصر منها على العنصرين الباقين . من ذلك أن الملكية الاسبارطية كانت في الواقع ملكية ثنائية ، فقد كان فيها ملكان يحكمان معاً وينحدران من الهرقليين الغزاة . ولعل هذا النظام الغريب كان تراضياً بين أسرتين متنافستين لأنهما تنتميان إلى أصل واحد ، أو لعله كان وسيلة للاستفادة مما للملكية من مزايا نفسانية في المحافظة على النظام الاجتماعي والعزة القومية مع تجنب استبدادها وطغيانها . وكانت سلطة الملكين سلطة محددة غير مطلقة : فكانا يقومان بتقريب القرابين التي يتطلبها دين الدولة ، ويرأسان الهيئة القضائية ، ويقودان الجيش في الحرب . وكانا في جميع أعمالهما خاضعين لمجلس الشيوخ ، وأخذنا بعد معركة بلاتية يفقدان سلطانهما شيئاً فشيئاً ويتولاها الإفورون .

أما العناصر الأرسقراطية ذات السلطان الأكبر في الدولة فكان مقرها في مجلس الشيوخ أو الجروسيا . وكانت الجروسيا بمعناها الحرفي

وحقيقة أمرها جماعة من الرجال كبار السن ؛ وكان الذين نقل أعمارهم عن
سنتين عاما يعدون في العادة غير ناضجين لمناقشة شئون الدولة في هذا المجلس .
ويحدد أفلوطرخس عدد أعضاء المجلس بثمانية وعشرين عضواً ويروى عن
طريقة انتخابهم رواية لا يصدقها العقل ، فيقول إنه إذا خلا مكان في المجلس
كان يطلب إلى من يتقدمون لملئه أن يبروا صامتين واحداً بعد واحد أمام
الجمعية ، فن حيته منهم بأعلى الأصوات وأطولها أعلن انتخابه^(١١) . وربما
كانت هذه الطريقة في رأيهم طريقة واقعية مختصرة للإجراءات الديمقراطية
الطويلة الكاملة . ولسنا نعرف أى المواطنين كانوا هم الصالحين لهذا
الانتخاب ، وأكبر الظن أن الذين يصلحون كانوا هم « الهمويتوى »
أى الأنداد والذين يمتلكون أرض لكونيا وخدموا في الجيش ، وجاءوا
بنصيبهم من الطعام إلى المائدة العامة^(١٢) . وكان مجلس الشيوخ هو الذى
يقترح القوانين ، وكان هو المحكمة العليا التى تفصل في الجرائم الكبرى ،
وهو الذى يضع أسس السياسة العامة للدولة .

وكانت الجمعية ، الأپلا Apella ، هى العنصر الديمقراطى الذى ارتضته
اسبارطة في حكومتها . ويلوح أن جميع المواطنين الذكور كانوا يقبلون فيها
متى بلغوا سن الثلاثين ، وكان عدد من يمكن اختيارهم أعضاء فيها ٨٠٠٠ من
بين سكان اسبارطة البالغ عددهم ٣٧٦٠٠٠ . وكانت تجتمع في كل يوم من
الأيام التى يكون فيها القمر بديراً ، وتعرض عليها جميع المسائل العامة ذات
الأهمية الكبرى ، ولا يسن قانون إلا إذا وافقت عليه . على أن الذى حدث
بالفعل أن القوانين التى أضيفت لى دستور ليقورغ كانت قلة لا تستحق
الذكر ، وهكذا لم يكن للجمعية إلا أن تقبلها أو ترفضها دون أن يكون لها
حق تعديلها . فهى فى جوهرها الاجتماع الهومرى العام القديم تستمع فى رهبة
إلى آراء الزعماء والكبار أو إلى الملكين قائدى الجيش . وكانت الأپلا من
الوجهة النظرية مصدر السلطات وصاحبة السيادة ، ولكن تعديلاً أدخل على

الدستور بعد ليقورغ جعل لمجلس الشيوخ حق تغيير قرار الجمعية إذا رأى أنها اتخذت قراراً « معوجاً »^(٤٣) ، ولما أن طلب مفكر سبأق لعصره إلى ليقورغ أن ينشئ دولة ديمقراطية أجابه المشرع بقوله : « ابدأ أيها الصديق بإنشائها في أسرتك »^(٤٤) .

وكان شيشرون يشبه الإفورين (المشرفين) الخمسة بالثربيونين في رومة لأن الجمعية هي التي كانت تختارهم في كل عام ، ولكنهم في الواقع كانوا أكثر شها بالقتال الرومان لأنهم كانت لهم سلطة إدارية لا يقف في سبيلها إلا معارضة مجلس الشيوخ . وكانت وظيفة الإفور قائمة قبل ليقورغ ، ولكنها مع ذلك لم يرد لها ذكر فيما وصل إلينا من أبناء عن شراعه . ولم يكدهم من القرن السادس إلا نصفه حتى أصبحت سلطة الإفورين مساوية لسلطة الملكين ، ثم أصبحوا في واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب الفارسية ، فكانوا يستقبلون السفراء ، ويفصلون في المنازعات القضائية ، ويقردون الجيوش ، ويرجسون أعمال الملوك ، ويعاقبون الملوك أنفسهم أو يرثونهم من التهم التي توجه إليهم .

أما تنفيذ أوامر الحكومة فكان يتولاه الجيش أو الشرطة . وقد جرت عادة الإفورين بأن يسلحوا بعض الشبان الاسبارطيين ، ويتخذوهم شرطة سرية (كريتيا krypteia) ليتجسسوا على الناس ، وكان لهم حق قتل الهليوتيين بمحض إرادتهم^(٤٥) . وكانت هذه الهيئة تستخدم في أوقات لم يكن ينتظر أن تستخدم فيها ، بل إنها كانت تستخدم للتخلص من الهليوتيين إذا كان سادتهم يرونهم رجالا قادرين يخشى بأسهم ، وإن كانوا قد دافعوا عن الدولة في الحرب دفاع الأبطال . ويقول عنهم تركيديس النزيه بعد ثمان سنين من حرب البلوونيز :

صدر إعلان يدعو الهليوتيين لأن يختاروا من بينهم من يقولون إنهم

قد أظهروا تفوقهم في قتال الأعداء لكي ينالوا حريتهم ؛ وكان الغرض الحقيقي من هذه الدعوة هو اختبارهم ، لأن أول من يتقدمون للمطالبة بحريتهم كانوا في رأى الداعين أعزهم نفساً وأكثرهم استعداداً للعصيان . واختير بهذه الطريقة ألفان منهم وضعت على رؤوسهم التيجان ، وطافوا بالهياكل مغتطين بحريتهم الجديدة ، ولكن الاسبارطيين ما لبثوا أن تخلصوا منهم جميعاً ؛ ولم يعترف أحد قط كيف هلك كل فرد من أفرادهم^(١٦) .

وكان الجيش عماد السلطة في اسبارطة ومناطق فخرها ، لأنها وجدت في شجاعته ، ونظامه ، ومهارته ، أمنها ومثلها الأعلى . وكان كل مواطن يدرّب تدريباً حريياً ، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والستين من عمره . وبفضل هذا التدريب القاسى نشأت المهلبت hoplites الاسبارطية وهى فرق المشاة المتراسة الثقيلة . قاذفات الحراب ، والمكونة من المواطنين ، التى كانت تقذف الرعب في قلوب الأثينيين أنفسهم ، ولم يكذب يقهرها عدو حتى انتصر عليها إياميننداس في Epaminondas في لكترا Leuctra . وكان هذا الجيش هو المحور الذى صاغت اسبارطة حوله قانونها الأخلاقى . فالبطية في اسبارطة هى أن تكون قوياً شجاعاً ؛ والموت في ميدان القتال هو أعظم الشرف ومنتهى السعادة ؛ والحياة بعد الهزيمة هى العار الذى لايجب والذى لاتغتفره الأم نفسها لابنها الجندى . وكانت الأم تودع ابنها الجندى الذهاب إلى حومة الوغى بقولها : « عد بدرعك أو محمولاً عليه » . وكان الفرار بالدرع الثقيل أمراً مستحيلاً .

٣ - القانون الاسبارطى

إن تدريب الناس على مثل أعلى متعب للجسم وخاصة إذا كان كالذى يدرّب عليه الاسبارطيون ، يتم أخذهم من أيام مولدهم وتعويدهم أشد النظم

وأعظمها صرامة . وكانت الخطوة الأولى هي تقوية النسل بأقسى الطرق . فلم يكن كل ما يفرض على الطفل هو أن يواجه ما لأبيه من حق قتله ، بل كان يوثق به فضلا عن ذلك أمام مجلس من مجالس الدولة مكونة من ممتشين ، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقى به من فوق جرف في جبل تيجيتس ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله^(٤٧) . وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التي جرى عليها الاسبارطيون وهي تعويد أطفالهم تحمل المشاق والتعرض لمختلف الجواء^(٤٨) . وكان يطلب إلى الرجال والنساء أن يهتموا بصحة من يريدون أن يتزوجهم وبأخلاقهم وحتى الملك أركداموس Archidamus نفسه قد فرضت عليه غرامة لأنه تزوج بامرأة ضئيلة الجسم^(٤٩) . وكان الأزواج يشجعون على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوى قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء ؛ وكان ينتظر من الأزواج الذين أنهمكهم المرض أو أعجزتهم الشيخوخة أن يدعوا الشبان ليعينوهم على تكوين أسرة قوية . ويقولون أفلو طرخس « إن ليقورغ كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول إن من أسخف الأشياء أن يعنى الناس بكلاهم وخيلهم ، فيبدلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة ، ثم تراهم مع ذلك يقون زوجاتهم في معزل ليختصوا بهن في إنجاب الأبناء ، وقد يكونون ناقصى العقل أو ضعفاء أو مرضى » . والأقدمون كلهم مجمعون على أن الذكور من الاسبارطيين كانوا أقوى أجساماً وأجمل وجوهاً من سائر رجال اليونان ، وأن نساءهم كن أصح وأجمل من سائر نساء تلك البلاد^(٥٠) .

وأغلب الظن أن هذه النتيجة يرجع أكثرها إلى التدريب لا إلى العناية بالنسل . وفي ذلك يقول توكيديدس على لسان الملك أركداموس : « قلما يكون ثمة فرق » (يعنى وقت المولد على ما نظن) « بين الرجل والرجل . ولكن الذى يتفوق فى آخر الأمر هو الذى ينشأ فى أقسى مدرسة »^(٥١) . وكان الولد الاسبارطى يؤخذ من أسرته فى السابعة من عمره

لتتكفل الدولة بربيته ؛ فكان يسلك في فرقة عسكرية هي في الوقت نفسه فصل مدرسي تحت إشراف بيدونوموس Paidonomos أوقم على الأولاد . وكان أقدر الأولاد وأشجعهم في كل فصل ينصب عريفاً عليهم ؛ ويطلب إلى سائر الأولاد أن يطيعوه ، وأن يخضعوا لما عساه أن يفرضه عليهم من عقاب ، وأن يحاولوا أن يجاروه أو أن يتفوقوا عليه في الأعمال الشاقة وفي حسن النظام . ولم يكن هدفهم من هذه التربية هو الجسم الرياضي والمهارة في الألعاب كما كان هدف الأثينيين ، بل كان هذا الهدف هو الشجاعة الحربية والقيمة العسكرية . وكانوا يقومون بالألعاب وهم عراة على أعين الكبار والعشاق من الرجال والنساء . وكان هم الكبار من الرجال أن يشيروا الشحنة بين الأولاد فرادى وجماعات ، ليختبروا بهذا ما لديهم من قوة وجلد ويدبروهم عليهما ؛ فإذا ما جنبوا لحظة جللهم العار أياماً طوالاً . وكان يطلب إلى الاسبارطين جميعاً أن يتحملوا الألم ويقاسوا الصعاب ، وأن يصبروا على المصائب وهم صامتون لا يتذمرون . وكان عدد من الشبان يختارن كل عام أمام مذبح أرتميس أرثيا Artemis Orthia وتلهب أجسامهم بالسياط حتى تخضب دماؤهم الحجارة^(٥٣) . وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابس السفل ، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طوال أيام السنة . ولم يكن يستحم كثيراً كغلمان الأثينيين ، لأن الماء والأدهان تجعل الجسم ليناً رخواً ، أما الهواء البارد والتراب التنظيف فيجعلانه صلباً شديد المقاومة . وكان ينام في العراء صيفاً وشتاء ، على فراش من الأسل يقطع من شاطئ يوروتاس . وكان يعيش حتى الثلاثين من عمره في الثكنات مع فرقته ، ولا يعرف وسائل الراحة المنزلية .

وكان يتعلم القراءة والكتابة ، ولكنه لا يكاد يتعلم منهما ما يكفي لأن يخرجه من سلك الأميين ، ولعلها كانت الكتب تجرد في اسبارطة من يشترها^(٥٤) وكان الناشرون قلة كالمشترين . ويقول أفلوطرخس إن ليقورغ كان يرغب ألا يتعلم الأطفال قوانينه بطريق الكتابة ، بل يجب أن يتلقوها مشافهة وبطريق

المران عليها في شبابهم بعناية من يرشدهم ويضرب لهم المثل بنفسه . وكان يرى أن تقويم الأخلاق بتعويدهم إياها دون أن يحسوا هم بذلك خير من الاعتماد على الإقناع بالحجج النظرية ؛ وأن التعليم الصحيح هو خير أساليب الحكم ، على أن يكون هذا التعليم خلقياً أكثر منه عقلياً ، لأن الخلق أعظم خطراً من العقل . وكان الشاب الاسبارطي يدرّب على الاعتدال في الشراب ، وكانوا يرغمون بعض الهلوتيين على الإفراط فيه حتى يرى الشبان ما قد يتردى فيه المخدور من حماقات (٥٤) . وكان يعلم أن يستعد للحرب بأن ينطلق في الحقول يحد طعامه بنفسه أو يموت جوعاً إذ لم يجده ، وكانو يجيزون له السرقة في هذه الأحوال ، فإذا قبض عليه وهو يسرق عوقب بالجلد (٥٥) . وإذا كان حسن السلوك سمح له أن يحضر اجتماع المواطنين العام ، وكان ينتظر منه أن يعنى بالاستماع إلى ما يقال فيه حتى يلم بمشاكل الدولة ويتعلم فن الحديث الطريف . فإذا تخطى صعاب الشباب بشرف وبلغ سن الثلاثين منح كل ما للمواطن من حقوق ، وألقيت عليه جميع ما يلقى على المواطن من تبعات ، وأجيز له أن يجلس لتناول الطعام مع من هم أكبر منه .

وكانت البنت أيضاً خاضعة لقيود تفرضها الدولة وإن كانت تتركها لتربي في منزل أبيها . فكان يطلب إليها أن تقوم ببعض الألعاب العنيفة - كالجري ، والمصارعة ، ورمى القرص ، وإطلاق السهام من القوس - لكي تصبح قوية البنية ، صحيحة الجسم ، صالحة في يسر للأومة الكاملة . وكان عليها أن تسير عارية في أثناء الرقصات والمواكب العامة ، ولو كانت في حضرة الشبان لكي يحفزها ذلك إلى أن تعنى بجسمها العناية الواجبة ، ولكي تنكشف للناس عيوبها فيعملوا على إزالتها ، وفي ذلك يقول أفلوطرخس وهو الرجل الشديد الحرص على الأخلاق : « ولم يكن ثمة شيء يستحي منه في عرى الفتيات ، فقد كان الوقار شعارهن ، وكان الفجور أبعد الصفات عنهن . وكن وهن يرقصن يغنين الأغاني

في مدح من أظهروا الشجاعة في الحرب . وبصين اللعنات على من يجبن . ولم يكن الاسبارطون يضيعون جهودهم ووقتهم في تربية البنات تربية عقلية .

أما الحب فكان يسمح للشباب أن ينغمس فيه وأن يحب الذكور والإناث دون ما تخرج ؛ فقد كان لكل صبي تقريباً حبيب بين من هم أكبر منه من الرجال ، وكان ينتظر من هذا الحبيب أن يواصل تعليمه ، وأن يجزيه الصبي عن هذا حباً وطاعة . وكثيراً ما استحال هذا النفع المتبادل صداقة عاطفية قوية تبعث في نفس الفتى والرجل ضروب البسالة في الحرب^(٥٦) . وكان يسمح للشبان بالكثير من الحرية قبل الزواج ، ولذلك كانت الدعارة الرسمية نادرة الوجود وكان النسرى لا يأتي تشجيعاً^(٥٧) . ولم نسمع عن وجود هياكل لأفردتي في لسديمون كلها ، اللهم إلا هيكل واحد ، وحتى في هذا الهيكل قد مثلت الإلهة وعليها نقاب وفي يدها سيف ، وفي قدميها أغلال ، كأنها تشير بذلك إلى ما في زواج الحب من سخف وطيش ، وإلى خضوع الحب للحرب ، وإلى إشراف الدولة لإشرافاً قوياً على الزواج .

وحددت الدولة أنسب سن للزواج سن الثلاثين للرجال والعشرين للنساء . وكانت العزوبة في اسبارطة جريمة ، وكان العزاب يخرمون حق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التي يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا ؛ ويقول أقلوطرخس إن العزاب أنفسهم كانوا يرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا العقاب العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد . وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم في أي وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذبنهم أشد الأذى . ولم يكن العار الذي يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون ليقل كثيراً عن العار الذي يلحق العزاب ؛ وكان المفهوم أن من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الديني الذي يقدمه الشبان الاسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً^(٥٨) .

وكان الوالدان هما اللذين ينظمان زواج أبنائهما ، دون أن يكون للبيع والشراء أثر في هذا التنظيم ؛ فإذا ما اتفقا على الزواج كان ينتظر من العريس أن ينتزع عروسه من بيت أبيها قوة واقتداراً ، كما كان ينتظر منها أن تقاوم هذا الانزعاج ، وكان اللفظ الذى يعبر به عن الزواج هو لفظ هريديزين harpadzein أى الاغتصاب^(٥٩) . فإذا ترك هذا التنظيم بعض الكبار بلا زواج ، جاز حشر عدد من الرجال في حجرة مظلمة ومعهم عدد مساو لهم من البنات ، ثم يترك هؤلاء وأولئك ليختار كل رجل شريكة حياته في الظلام^(٦٠) ؛ ذلك أن الاسبارطيين كانوا يعتقدون أن هذا الاختيار لم يكن فيه من العمى أكثر مما في الحب . وقد كان من المؤلف أن تبقى العروس مع أبيها وقتاً ما ، وأن يبقى العريس في ثكناته لا يزور زوجته إلا خلسة . ويقول أفلوطرخس إنهما كانا يعيشان على هذا النحو زمناً طويلاً حتى لقد كان بعضهم ينجب من زوجته أطفالاً قبل أن يرى وجهها في ضوء النهار . فإذا ما أوشكا أن يكونا أبوين سمح لها بأن ينشأ بيتاً . وكان الحب ينشأ بعد الزواج لاقبله ، ويلوح أن الحب بين الزوج وزوجته لم يكن في اسبارطة أقل منه في سائر الحضارات^(٦١) . وكان الاسبارطيون يفخرون بأن الزنا لا وجود له بينهم ، وقد يكونون على حق في هذا الفخر . ، لأنهم كانوا يتمتعون قبل الزواج بقسط كبير من الحرية ، وكان الكثيرون من الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم وخاصة إخوتهم في زوجاتهم^(٦٢) . وكان الطلاق نادراً وقد عوقب ليسندر Lysander القائد الاسبارطى لأنه هجر زوجته وأراد أن يتزوج أخرى أجل منها^(٦٣) .

وكان مركز المرأة بصفة عامة في اسبارطة خيراً منه في أى مجتمع يونانى . آخر ، فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكاتها المومرية العالية وبالمزايا التى بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذى كان الأبناء فيه ينسبون إلى أمهاتهم... وفى ذلك يقول أفلوطرخس إن النساء الاسبارطيات كن

يمتزن « بالحرأة والرجولة ، وبالتشامخ على أزواجهن ... وكن يتحدثن بصراحة حتى في أهم الأمور » ؛ وكان من حقهن أن يرثن ويورثن ، وقد آلت لهن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة في اسبارطة بفضل ما كان لهن من سيطرة قوية على الرجال^(٦٥) . وكن يعشن في بيوتهن عيشة الترف والحرية ، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب الكثيرة أو يطعمن الطعام البسيط مع سائر الرفاق .

ذلك أن الدستور الاسبارطى كان يفرض على كل رجل من سن الثلاثين إلى الستين أن يتناول وجبته اليومية الرئيسية في مطعم عام كبير ، وكان الطعام فيه بسيطا في نوعه وأقل قليلا في كميته مما يلزم للشخص للعادي . وكانت هذه القلة في الطعام متعمدة يقصد بها المشرع كما يقول أفلوطرخس أن يعودهم الصبر على ما يلاقونه في الحرب من حرمان ، وأن يحول بينهم وبين ما ينشأ في عهود السلم من تدهور وانحطاط ؛ فكان يحرم عليهم « أن يقضوا حياتهم في البيوت ، ينامون على الفراش الوثير ويطعمون الطعام الشهى ، يسلدون أنفسهم إلى أيدى التجار والطهاة ، يتخمونهم في أركان الدور كما يتخمون الحيوانات الشرهة ، فلا يفسدون بذلك عقولهم فحسب بل يفسدون أجسامهم كذلك ، فإذا ما انحطت قواهم بسبب الانهماك والإفراط ، أصبحوا في حاجة إلى النوم الطويل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل ؛ وجملة القول أنهم يصبحون لا يعنون بعمل شيء ولا يشرفن على شيء كأنهم مصابون بعلة دائمة لا يبرءون منها^(٦٦) » . وكانوا يحصلون على المواد اللازمة لهذه الوجبة العامة بأن يطلب إلى كل شخص أن يقدم في فترات معينة إلى النادي الذى يطعم فيه كميات محددة من الحبوب وغيرها من الطعام ؛ فإذا لم يقدمها حرم من حقوق المواطنين .

وكانت هذه البساطة في المأكل والمشرب ، وكان هذا التقشف في المعيشة ، اللذان يدرّب عليهما الشاب الاسبارطى يمتدان في القرون الأولى بعد وضع القانون إلى ما بعد سن الشباب . ولذلك كانت البدانة نادرة في لسديمون ؛ نعم

لإنهم لم يسنوا قانوناً يحدد حجم المعده ، ولكن إذا كبر بطن الرجل كبراً معيياً ، كان عرضة لأن تؤنبه الحكومة علناً على هذا الكبر أو أن تنفيه من لكونيا . ولم يكن في اسبارطة إلا القليل من السكر واللهم المنتشرين في أئينة ؛ وكان ثمة فروق حقيقية في الثروات ولكنها كانت فروقاً خفية ؛ فقد كان الأغنياء والفقراء يلبسون الثياب البسيطة نفسها - وهي قميص من الصوف يتدلى من الكتفين من غير تظاهر بجمال أو اختيار شكل معين له ؛ وكان الإكثار من الثروة المتقولة من أصعب الأمور ، وكان ادخار نقود حديدية تبلغ قيمتها نحو مائة ريال أمريكي يتطلب صندوقاً كبيراً ، ولم يكن نقل هذا القدر من المال يحتاج إلى أقل من ثورين^(١٨) ، بيد أن الطمع الإنساني لم يكن معدوماً ، وكان يجد له منفذاً في الفساد الرسمي ، ذلك أنه كان من المستطاع شراء الإفورين ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، والرسل ، وقواد الجليش ، والملوك بأثمان تتفق مع مكانتهم^(١٩) . ولما أن عرض سفير من جزيرة ساموس صحافة الذهبية في اسبارطة حتم الملك كليومنيس الأول استدعاه منها لئلا يفسد مواطنوه بهذا المثل الأجنبي^(٢٠) .

وكان نظام الحكم الاسبارطي ، لخوف الأهليين من هذه العدوى ، غير كرم في معاملة الأجانب إلى حد لم يسبق له مثيل . فقلما كان الأجانب يرحب بهم في البلاد ، وكانوا يفهمون عادة أن زيارتهم يجب ألا تطول ، فإذا طالت فوق ما يجب صحبهم رجال الشرطة إلى حدود البلاد . وكان يحزم على الاسبارطيين أنفسهم أن يخرجوا من بلادهم إلا بإذن من الحكومة ؛ كما كان يقلل من تشوفهم بتعويدهم العزلة المتعجرفة التي لا يحلمون معها أن في وسع غيرهم من الأمم أن تعلمهم شيئاً^(٢١) ؛ وكان لا بد لهذا النظام أن يكون غير كرم إلى هذا الحد ليحمى بذلك نفسه ؛ لأن ربحاً تهب من هذا العالم المحرم عليهم ، عالم الحرية ، والترف ، والآداب ، والفنون ، قد تدك هذا النظام المصطنع العجيب الذي كان ثلثا الشعب فيه من الأقتان وكل السادة فيه من الرقيق .

٦ - ما لاسبارطة وما عليها .

ترى أى طراز من الرجال وأى نوع من الحضارة أنتجها هذا القانون ؟
فأما الرجال فكانوا أقوياء الأجسام ألفوا المشاق والحرمان . وقد قال عنهم
احد السياريين Sybarites المترفين إن الاسبارطيين « لا يمدحون على
استعدادهم للموت فى ميدان القتال لأن موتهم هذا ينجيهم من كثير من العمل
الشاق ومن الحياة البائسة » (٧٢) . وكانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسية فى
اسبارطة ، كما كان المرض جريمة فيها ؛ وما من شك فى أن أفلاطون قد سره
أن يجد بلاداً خالية من الدواء ومن الديمقراطية . وكان الاسبارطى شجاعاً ؛
وما من أحد من الناس غير الرومان يضارعه فى ثبات جنانه وفى انتصاره
فى الحروب ؛ وليس أدل على ذلك من أن بلاد اليونان كلها لم تكذب تصدق
ان الاسبارطيين قد استسلموا لأعدائهم فى اسفكتيريا Sphacteria ؛ ذلك
أنه لم يسمع عنهم من قبل أنهم لم يحاربوا إلى آخر رجل فيهم ، وحتى الجندى
الاسبارطى العادى كان يفضل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة (٧٣) . ولما أن
وصلت إلى آذان الإفورين أبناء هزيمة الاسبارطيين المنكرة فى لوكترا Leuctra
- وكانت هزيمة ما حقه اختم بها فى واقع الأمر تاريخ اسبارطة - وكانوا
وقتئذ على رأس الألعاب الجمنوبودية ، لم ينطقوا بكلمة واحدة . وكل
ما فعلوه أن أضافوا إلى سجل الموقى المقدسين الذين نالوا شرف الموت فى
الألعاب أسماء القتلى الجدد . وكان من الصفات العادية التى يتصف بها كل
مواطن اسبارطى ، والى كان يكتب عنها الأثينيون ولكنهم قلما كانوا
تحلون بها ، كان من هذه الصفات ضبط النفس ، والاعتدال ، والهدوء .
والثبات فى السراء والضراء .

وإذ كانت إطاعة القانون فضيلة فقد كان الاسبارطى يفوق فى هذه
الفضيلة سائر الناس . وفى ذلك يقول الطبيب دمراتوس Demaratus

لخشياريشاي : « إن اللسديمونيين ، وإن كانوا أحراراً ، ليسوا أحراراً في كل شيء ، لأن القانون سيدهم الأعلى ، يخافونه أكثر مما يخافك شعبك » (٧٤) .
وقل أن تجد شعباً غيرهم - مع جواز استثناء الرومان واليهود في العصور الوسطى - كان احترامه لقوانينه سبباً في قوته . وقد ظلت اسبارطة مائتي عام على الأقل تزداد قوة على قوة تحت دستور ليقورغ ، وهي وإن عجزت عن فتح أرجوس وأركاديا ، قد أذنت لجميع البلوبونيزيين أن يقبلوا زعامتها لحلف البلوبونيز الذي ساد بفضل السلام في جزيرة بلويس ما يقرب من قرنين كاملين (٥٦٠ - ٣٨٠ ق . م) . وكانت بلاد اليونان على بكرة أبيها تعجب بجيش اسبارطة وحكومتها ، وتطلع إلى معوتها في نل عروش الطغاة الظالمين . ويحدثنا أكسانوفون عن « الدهشة التي عرتني حين لاحظت أول مرة موقع اسبارطة الفذ بين دول اليونان ، وعدد سكانها القليلين بالنسبة لغيرها من الدول ، وقوة شعبها ومنزلته العالية بالرغم من هذه القلة . وقد حيرني تعليل قوة هذا الشعب ومنزلة هذه الدولة ، ولم تزل هذه الحيرة إلا حين فكرت في أنظمة الاسبارطيين العجيبة » (٧٥) . ولم يكن أكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الاسبارطيين ، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم . ولا حاجة إلى القول بأن اسبارطة هي التي وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسية لمدينته الفاضلة ، التي طمس معالمها بعض الشيء إغفاله العجيب للمثل العليا . ولقد كان كثيرون من المفكرين اليونان يعمدون إلى تمجيد نظام اسبارطة وشرائعها بعد أن ملوا ما في الديمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها .

والحق أنهم كانوا يستطيعون انثناء على اسبارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها ، ولم يروا عن كتب ما في أخلاق الاسبارطيين من أنانية ، وبرود ، وقسوة ، ولم يبينوا ممن يرونهم من الصفوة التي التقوا بها منهم ، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد ، أن الشرائع الاسبارطية كانت تخرج

جنوداً بوسائل ولا شيء غير الجنود ، وأنها جعلت قوة الجسم وحشية مرفولة لأنها أمانت الكفايات العقلية كلها تقريباً . ذلك أنه لما أصبح لهذا القانون المقام الأول في البلاد أصاب الموت فجأة جميع الفنون التي ازدهرت قبل سيادته ، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين ، أو بنائين في اسبارطة بعد عام ٥٥٠ ق . م (*) ، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعي والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الاسبارطي وأن يخفنى الفرد ويضيع في المجموع . ولقد كان أثر حرمان الاسبارطيين أن يتجروا مع العسلم ومنعهم من الأسفار ، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة في الظهور والنماء ، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال ، لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا في هذه الجندية حياتهم كلها ؛ ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الحالية من الروتق والبهاء ، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية ، وهذه المحافظة الشديدة على كل عادة وكل خرافة ، وفي الشجاعة التي كانت موضع الإجلال ، وذلك النظام الصارم ، وهذا الخلق النبيل ، وذاك الغرض الدنيء الذي لا يؤدي إلى غاية . وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة واسعة المدى ، قوية في أعمالها ، تتقبل كل فكرة جديدة ، حريصة على الاتصال بالعالم ، متسامحة ، متنوعة ، معقدة ، مرفقة ، مبتدعة ، متشككة ، واسعة الخيال ، شعرية ، مشاغبة ، حرة . لقد كان ما بين أثينة واسبارطة من التناقض هو الذي صبغ التاريخ اليوناني بصبغته المعروفة ورسم خطوطه الرئيسية .

(*) لقد زين جتياداس Oitiadas هيكل أثينة بصفائح البرنز البديعة الصنع ، وشاد بأكلياذ Bathycles المهنزي مرشاً فحماً لأپاؤى أمكل Amyclae كما شاد ثيودورس الساموسى يهراً كبيراً لمدينة اسبارطة ؛ وبعد هذا لا نكاد نسمع شيئاً عن الفن الاسبارطي حتى هل يد فائين من خارجها .

ولقد قضى ضيق أفق اسبارطة في آخر الأمر على ما لها من قوة نفسية ، ذلك أن نفسيها قد انحطت حتى صارت ترتضى كل وسيلة تؤدي إلى غرض اسبارطى ، وبلغ من ذلتها في آخر الأمر للغزاة أن باعت للفرس تلك الحريات التي كسبتها بلاد اليونان في مراثون . لقد استحوذت عليها النزعة العسكرية وجعلتها سوط عذاب لجيرانها بعد أن كانت في مكان الشرف منها ، ولما أن سقطت ، عجبت الأمم كلها من سقوطها ، ولكن ما من أمة حزنت لها . ولا نكاد اليوم نجد بين الأنقاض القليلة الباقية من هذه العاصمة القديمة نقشاً واحداً أو عموداً ملقى على الأرض يعلن للعالم أن اليونان كانوا في يوم من الأيام يسكنون في هذا المكان .

الفصل الرابع

الدول المنسية

يمتد وادي نهر يوروتس Eurotas في شمال اسپارطة إلى جبال أركاديا المتجمعة بعد أن يجتاز حدود لكونيا . ولو أن هذه الجبال كانت أقل مما هي خطورة لكانت أكثر مما هي جمالا . ويلوح أنها لم ترحب بالطرق الضيقة التي نحتت في منحدراتها الصخرية ، وأنها تهدد بقتامها كل من يحاول الاعتداء على هذه الملاجئ الأركادية المنعزلة ؛ فلا غرابة والحالة هذه إذا ضل فيها الفاتحون الدوريون والاسبارطيون وتركوا أركادية كما تركوا إليس وأخيا للسلاط الآخية والبلاسية . ويعثر السائح في أماكن متفرقة من هذا الإقليم على سهل أو هضبة ، كما يجد فيه مدناً جديدة زاهرة كمدينة تريبوليس Tripolis ، أو بقايا مدن قديمة كمدائن أركنوس Orchomenos ، ومجالبوليس Megalopolis ، وتيجيا Tegea ، ومنتينيا Mantinea حيث انتصر أبامينداس ولاقي حتفه . ولكنها في معظم أجزائها أرض يسكنها فلاحون ورعاة متفرون يعتمدون على موارد مزعزة غير ثابتة ، ويعيشون هم وماشيتهم على هذه التلال الضئيلة ؛ ومع أن هذه المدائن قد استيقظت بعد مرثون لتستقبل الحضارة والفن ، فإن من الصعب أن نسلكها في قصة الحضارة قبل الحرب الفارسية . وفي هذه الغالبات ذات الأشجار العمودية كان يجول الإله بان في وقت من الأوقات .

ويلتقي نهر يوروتس في أركاديا الجنوبية بنهر آخر أوسع منه شهرة وهو نهر ألفيوس Alpheus . وهذا النهر يشق طريقه شقاً سريعاً خلال سلاسل الجبال البرهازية Parhasian ، ثم يشق ببطء حتى يدخل سهول إليس ،

ويرشد السائح إلى أولمبيا . ومحدثنا بوزنياس بأن الإليانيين^(٧٦) . كانوا من أصل إيولي أو پلاسجى جاءوا إلى إيتوليا بعد أن عبروا الخليج . وكان أول ملوكهم إيثليوس Aethlius والد إندميون Endymion الذى أغوى جماله القمر^(*) فأغمضت عينيه وأرسلت عليه نعاساً سرمدياً ، وما زالت تضاجعه على مهل حتى ولدت منه مائة بنت . وفى هذا المكان الذى يلتقى فيه نهر ألفيوس بنهر كلاديوس Cladeus المقبل من الشمال كانت المدينة المقدسة للعالم اليونانى كله ؛ وقد بلغ من قدسيته أن الحرب قلما أزعجتها ، ومن أجل ذلك نعم الإيليون Elians بتاريخ استبدلوا فيه الألعاب بالحروب . وفى الزاوية المحصورة بين النهرين كانت الألتيس Altis أو التخوم المباركة لمقر زيوس الأولمبي . وكانت موجات الغزاة المتتابعة تحط رحالها فى هذا المكان لتعبده ، كما كان مندوبون عن هؤلاء الغزاة يعودون إليه فيما بعد فى مواسم معينة ليسألوه العون ويغنوا مزاره بالنذور . وظلت ثروة هيكل زيوس وهيرا وشهرتهما تزدادان جيلا بعد جيل حتى انتصر اليونان على الفرس فحشد أكابر المهندسين والمثالين اليونان ليعيدوا بناء الهيكلين ويزينوهما ويفقوا فى سبيل ذلك الأموال الطائلة اعترافاً بما كان لهما من فضل فى هذا النصر . ويرجع تاريخ هيكل هيرا إلى عام ١٠٠٠ ق . م ، وآثاره أقدم ما بقى من آثار الهياكل فى بلاد اليونان جميعها . وقد بقى من هذه الآثار أجزاء من ستة وثلاثين عموداً وعشرين تاجاً دورياً تشهد بأن هذه العمدة قد أقيمت المرة بعد المرة ، وأنها كانت تقام بأشكال مختلفة . ولا جدال فى أنها صنعت فى أول الأمر من الخشب . وكان جذع من أحدها وهو من شجر البلوط لا يزال قائماً حين أقبل بوزنياس على ذلك المكان ، ويده كراسته ، فى أيام الأنطونيين .

وإذا ما غادر الإنسان أولمبيا مر بموضع إيليس العاصمة القديمة ودخل

(*) القمر فى القصة مؤنث وقد احتفظنا به كذلك حتى يستقيم المعنى .

آخيا التي فر إليها بعض الآخيين بعد أن استولى الدوريون على أرجوس وميسيني ، وهي شبيهة بأركاديا في أنها بلاد جبلية يرعى على منحدراتها الرعاة الصابرون قطعان الماشية ، ويصعدون إلى أعلاها أو ينزلون إلى سفليها في فصول السنة المختلفة . ولا يزال ثعر بتراس القديم قائماً مزدهراً حتى الآن على الساحل الغربي ؛ وهذا الثغر هو الذي قال بوزنياس عن نسائه إنهن « ضعفا عدد الرجال ، وإنهن وفيات لأفريقي إن كان في النساء وفاء » (٧٧) . وكان :- هناك عدة مدن أخرى محتشدة في غير نظام على طول خليج كورنثة - إيجيوم Aegium ، وهليس Helice ، وإيجيرا Aegira ، وپليني Pelene ، وقد كادت كلها تصبح نسياً ولكنها كانت في غابر الأزمان تعج بالرجال والنساء والأطفال ، وما من أحد منهم إلا كان مركز العالم .

الفصل الخامس

كورنثة

وبعد أن يخرق السائح عدداً آخر قليلاً من الجبال يعود إلى سكيون مستقر اللوريين . وفي هذه المدينة علم رجل يدعى أوثجوراس Orthagoras العالم في سنة ٦٧٦ حيلة ظل يلجأ إليها فيما بعد ذلك من القرون . فقد قال للفلاحين إنهم من نسل البلاسجيين أو الآخيين على حين أن الأشراف المالكين للأرض والذين يستغلونهم من نسل الغزاة اللوريين ؛ ثم أخذ يستثير نكرة غير المالكين العنصرية ، وتزعهم في ثورة موفقة ، ونصب نفسه حاكماً بأمره عليهم ، ووضع السلطة في أيدي طبقتي الصناع والتجار (*) . وأصبحت سكيون في عهد خليفته العظيمين ميرون Myron وكليستيز مدينة يشتغل نصف أهلها بالصناعة ، واشتهرت بأحذيتها وفخارها ، وإن كانت لا تزال تسمى باسم ما ينمو فيها من الخيار .

وإلى شرقها تقوم المدينة التي كان موقعها الجغرافي والاقتصادي خليقاً بأن يجعلها أغنى بلاد اليونان وأرقاها ثقافة . تلك هي مدينة كورنثة ؛ وكان موقعها على الخليج المسمى باسمها مما تحسدها عليه سائر المدن اليونانية ؛ فقد كان في مقدورها أن تغلق باب الطريق البري الموصل إلى البلوبونيز ، وفي وسعها أن تيسر أسباب التجارة البرية بين شمالي بلاد اليونان وجنوبها ، أو أن تفرض عليها ما تشاء من الإتاوات . وكان لها موان وسفن على خليجي ساروس وكورنثة . وقد أنشأت بين هذين البحرين « مزلقاً للسفن »

(*) وكننا فعل كما يده مولن Camille Desmoulins في عام ١٧٨٩ فقد حرص

لغالبين من فرق دكتة في المقهى على طرد الأشراف الألمان .

(ديولكوس Diolcos) - أى طريقاً خشبياً تجر عليه السفن نحو أربعة أميال فوق الأرض على اسطوانات ، وربحت من وراء ذلك كثيراً من الأموال (٨٠) . وكان لها قلعة منيعة تدعى أكر وكورنثس Acrocorinthus وهى قلة من قلل الجبال يبلغ ارتفاعها أثنى قدم ، ويغذيها بالماء نبع لا ينضب معينه أبداً . وقد وصف لنا استرابون المنظر الذى تقع عليه عين من يشرف على هذا المكان من القلعة ، والمدينة مبسوطة على سطحين مدرجين من تحتها ، والملمهى المقام فى الهواء الطلق والحمامات العامة العظيمة ، والسوق ذات العمد ، والهاكل البراقة ، والأسوار التى تصد عنها الأعداء والتى تمتد إلى ميناء لكيبوم Lechaenum على الخليج الشمالى . وكان على قمة الجبل نفسها هيكل لأفرديتى وكأنما أقيم ليرمز إلى صناعة من أهم صناعات المدينة (٨٠) .

وكان لكورنثة تاريخ يرجع فى قدمه إلى الأيام الميسينية ، واشتهرت المدينة فى أيام هومر نفسه بثروتها الطائلة (٨١) . وكان يحكمها بعد الفتح الدورى ملوك ، ثم تولى حكمها الأشراف تسيطر عليهم أسرة البكيادى Bachia Jae ثم حدث فيها ما حدث فى أرجوس ، وسكيون ، ومجارا ، وأثينة ، ولسيوس ، وميليتس ، وساموس ، وصقلية ، وفى كل مكان راجت فيه التجارة اليونانية ، وهو استيلاء طبقة التجار ورجال الأعمال على السلطة السياسية بالثورة أو الدساتس . وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يجب أن يفهم من قيام حكومات « الطفيان » أو الدكتاتورىة فى بلاد اليونان فى القرن السابع قبل الميلاد . فى عام ٦٥٥ استولى سيسيلوس على مقاليد الحكم ، وكان قد نذر أن يخص زيوس بثروة كورنثة كلها إذا ما وصل إلى غرضه ، فلما تم له الأمر فرض

(*) وكان هذا المزلق طريقاً يرحب به للتجار ويفضلونه على المياه الصاخبة القريبة من رأس ماليا Matea التى تعترض الطريق الذاهب إلى الجزء الغربى من البحر المتوسط . وكان الطريق الخشبي يقوى على حمل السفن التجارية المألوفة فى أيام اليونان . ولقد نقل أغسطس أسطوله على هذا الطريق وهو يطارد أنطونيوس وكليوباتره ، بعد معركة أكتيوم ، ونقل أسطول يونانى بهذه الطريقة نفسها فى عام ٨٨٣ (٧٨) م . وقد وضع هيريندر فى أيامه مشروعاً لغرف القناة التى تصل الخليجيين ، ولكن مهندسيه رأوا هذا العمل فوق طاقتهم (٧٩)

على جميع أملاك المدينة ضريبة سنوية قدرها عشرة في المائة من قيمتها ،
ووهب ما تجمع منها للهيكل ، فلم تمض إلا عشر سنين حتى كان قد وفى
بندره وأبقى ثروة المدينة كما كانت من قبل (٨٢) . وقد وضع بحكمه المحبب
المستنير الذى دام ثلاثين عاماً أساس رخاء كورنثة (٨٣) .

وكان حكم ولده القاسى پريندر أطول حكم للطغاة فى تاريخ اليونان
(٦٢٥ - ٥٨٥) . وقد أقر فيه الأمن والنظام ، ومنع استغلال الناس
بعضهم بعضاً ، وشجع الأعمال التجارية والصناعية ، وناصر الآداب
والفنون ، وجعل كورنثة زماً ما أولى المدائن اليونانية ، ونشط التجارة
بسك عملة رسمية (٨٤) ، كما نشط الصناعة بخفض الضرائب المفروضة عليها ،
وحل مشكلة التعطل بإقامة طائفة من المبانى العامة وإنشاء المستعمرات فى
خارج البلاد ؛ وحمى صغار رجال الأعمال من منافسة الشركات الكبرى
بتحديد عدد الأرقاء الذين يجوز للرجل الواحد أن يستخدمهم فى أعماله ،
وحرم استيرادهم بعد هذا التحديد (٨٥) ، وأنجى الأغنياء مما عندهم من
الذهب الزائد على حاجتهم بأن أرغهم على الاشتراك بذهبهم فى صنع
تمثال ذهبى لتزدان به المدينة ؛ ثم دعا النساء ذوات المال فى كورنثة إلى
حفلة كبرى ، جردهن فيها من أثوابهن الغالية وحلبن الثمينية ، ثم
أمرهن بالعودة إلى بيوتهن بعد أن أم جهلن . وقد خلقت له أعماله هذه
أعداء كثيرين أقوياء ، فلم يكن يجرؤ على الخروج دون حرس كبير ،
وكان لخوفه وعزلته نكداً قاسياً . وأراد أن يحمى نفسه من الثورات
فعمل بالنصيحة الخفية التى أشار بها عليه زميله الطاغية تراسيبولس
الميليتى ، وهى أن يقطع « الفينة بعد الفينة أطول ما فى الحقل (٨٦) من
سنابل (*) » . وأخذت سراريه يوجهن التهم إلى زوجته ، حتى أترن
غضبه عليها ، فألقاها فى نوبة من نوبات هذا الغضب من فوق سلم
القصر ؛ وكانت حاملًا فماتت من شدة الصدمة ، فما كان منه إلا أن

(•) يريد بذلك أنه كان يعدم أقوى رجال الدولة (المترجم) . قارن ذلك بأعمال
« التطهير » التى تحدثت من آن إلى آن فى روسيا الشيوعية ١٩٣٥ - ٣٨ .

حرق السراري ونفى ابنه ليكفرون Lycophron إلى كرسيرا Corcyra لأنه حزن على أمه حزناً لم يطق معه أن يتحدث إلى أبيه . ولما أن قتل الكرسيريون ليكفرون قبض بريندر على ثلثائة شاب من أشرف الأسر وأرسلهم إلى أليتمس Alyattes ملك ليديا ليتخذهم خصياناً ، ولكن السفينة التي أفلتهم مرت بساموس ، فما كان من أهلها إلا أن أطلقوا سراح الشبان متحدين بعملهم هذا بريندر غير عابئين بغضبه . وعمر هذا الطاغية طويلاً وعده البعض بعد مرته من السبعة الحكماء في بلاد اليونان القديمة (٨٧) .

وثل الاسبارطيون بعد جيل من وفاته عرش الطغاة في كورنثة ، وأقاموا مكانهم حكم الأشراف - ولم يكن ذلك لأن اسبارطة تعشق الحرية ، بل لأنها كانت تفضل طبقة الملاك على طبقات رجال الأعمال . بيد أن ثروة كورنثة كانت تقوم على التجارة يعينها من حين إلى حين أتباع أفرديني والألعاب الهيلينية التي كانت تقام في برزخ كورنثة . وكانت العاهرات كثيرات في المدينة إلى حد جعل اليونان يطلقون اسم كورنثيازوماى Corinthiazomai على المهرنفسه (٨٨) . وكان من العادات المتبعة في كورنثة أن تخصص إلى هيكل أفرديني نساء يحترفن فيه الدعارة ويأتين بأجورهن إلى الكهنة . وقد وصل إلى علمنا أن رجلاً يدعى أكسانوفون (وهو غير أكسانوفون قائد العشرة الآلاف) وعد الإلهة خمسين محظية إذا أعانته على النصر في الألعاب الأولمبية . ويشير بندار الشاعر التقي إلى هذا النذر وهو يشيد بهذا النصر دون حياء أو اشمزاز (٨٩) . ويقول استرابون إن « هيكل أفرديني قد بلغ من الثروة أن كان له أكثر من ألف عبد من عبيد الهياكل ، ومحافظ وهبهن الرجال والنساء للهيكل ؛ وبفضل أولئك النسوة ازدحمت المدينة بالناس وعظمت ثروتها ؛ من ذلك أن قادة السفن كانوا ينفقون أموالهم في المدينة بلا حساب » . وكانت المدينة تشكر لمن حسن صنيعهم وتنظر إلى « أولئك السيدات الكريمات » نظرتها إلى المحسنين للشعب . وفي ذلك يقول

مؤلف قديم نقل عنه أثينيوس Athenayus : « من العادات القديمة في كورنثة ، كلما أرادت المدينة أن توجه دعاء إلى أفرديتي . . . ، أن تستعين بأكبر عدد مستطاع من المحاظلي ليشاركن في هذا الدعاء » . وكان لهؤلاء المحاظلي عيد ديني خاص بهن هو عيد الأفرديزيا Aphrodisia يحتفلن به احتفالا فحفا محوطاً بضروب التقى والصلاح^(٩٢) . وقد ندد القديس بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيين^(٩٣) بأولئك النسوة اللاتي ظالن يمارسن حرقهن في المدينة إلى أيامه .

وكان يسكن كورنثة في عام ٤٨٠ ق م خمسون ألفا من المواطنين وثلاثون ألفا من الأرقاء ، وهذه النسبة بين الأحرار والعبيد عالية علوا غير مألوف في المدن اليونانية^(٩٤) . وكان اقتناص اللذة والذهب هم جميع الطبقات ، يستنفد كل جهودهم فلا يبقى منها ما ينفقونه في الأدب والفنون إلا القليل . نعم إننا نسمع في القرن الثامن عشر عن شاعر يدعى يوملوس Eumelus ولكن الأدب اليوناني قلما يزدان بأسماء كورنثية . وكان بريندر يرحب بالشعراء في بلاطه واستقدم أريون Arion من لسيوس لينظم شئون الموسيقى في كورنثة . واشتهر فخار المدينة وبرنرها في القرن الثامن ؛ وكان من يعملون في طلاء مزهرياتها في القرن السادس أرق أهل هذا الفن في بلاد اليونان كلها . ويحدثنا پوزنياس عن صندوق عظيم من خشب الأرز اختفى فيه سپسيلوس Cypselus من البكياديين وحضر فيه الفنانون نقوشاً ظريفة ورصعوه بالعاج والذهب^(٩٥) . والراجح أن عصر بريندر هو الذي أقامت فيه كورنثة لأپلو هيكلادوريا اشتهر بأعمدته السبعة المححوت كل واحد منها من حجر واحد . ولا تزال خمسة من هذه الأعمدة قائمة إلى يومنا هذا توحى بأن كورنثة قد تكون أحبت الجمال في أكثر من صورة واحدة . ولربما كان الدهر والمصادفات قد ظلما هذه المدينة فلم يوفياها حقها من الشكر لأن تاريخها دونه رجال لا يدينون لها بولاء ولا يعترفون لها بفضل ، ولو أتيج للماضي أن يطلع على ما كتب عنه في صحف المؤرخين لعجب مما يرى أشد العجب .

الفصل السادس

مجارا

لم تكن مجارا أقل حياً للذهب من كورنثة ، وكانت التجارة عماد ثروة الأولى كما كانت عماد ثروة الثانية ، لكنها تخاف عنها في أنها كان لها شاعر عظيم تحيا تلك المدينة القديمة في شعره ، كأن ما قام فيها من الثورات هي ، بعينها الثورات التي قامت في بلادنا . وكانت المدينة تقع عند مدخل البلوبونيز نفسه ، وكان لها مرفأ على كلا الخليجين ، ومن أجل هذا كان موقعها يمكنها من أن تساوم الجيوش المغيرة على تلك البلاد ، وتفرض المكوس على التجارة ؛ وقد أضافت إلى هذه التجارة صناعة للنسيج مزدهرة يشتغل بها رجال ونساء كانوا يسمون بلغة تلك الأيام الصادقة عبيداً . وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها في القرنين السابع والسادس حين كانت تنازع كورنثة تجارة البرزخ ؛ وهذا هو العهد الذي أنشأت فيه مستعمرات لها كانت بمثابة محطات تجارية انتشرت ما بين بزنطية على الإسفور حتى مجارا هيليا Megara Hyblaea في صقلية ، وازدادت الثروة في المدينة زيادة مطردة ؛ ولكنها تجمعت في أيدي طائفة قليلة برعت في جمعها وبقيت جمهرة الشعب مكونة من أقنان معدمين بين أقلية موفورة الثراء ،^(٩٦) يستمعون إلى الدعاة الذين يمنونهم بعيش أرخى وحياة أنعم من عيشتهم وحياتهم . وفي عام ٦٣٠ ترثياجينز Theagenes أن يصبح طاغية فيها ، فأخذ يتماق الفقراء ويندد بالأغنياء ، ثم قاد جماهير النوغاء الجلياع إلى مراعى الأغنياء أصحاب الأنعام ، وأفلح في حمل العامة على أن يؤلفوا له حرساً خاصاً ، فلما تألف ضاعف عدده ، واستعان به على إسقاط الحكومة القائمة^(٩٧) . وحكم ثياجينز مجارا

نحو ثلاثين عاماً حرر في أثنائها الأقبان ، وأذل الأقبوياء ، وناصر الفنون ، ولكن أغنياء المدينة أنزلوه عن العرش حوالى عام ٦٠٠ ؛ ثم قامت ثورة ثالثة أعادت الديمقراطية الشعبية ، وصادرت أملاك زعماء طبقة الأشراف ، واستولت على بيوت الأغنياء ، وألغت الديون ، وأصدرت قراراً يحتم على أصحاب الأموال أن يردوا إلى المدينتين ما استولوا عليه من فوائد عن قروضهم (٩٨) .

وكان ثيوغينيز Theognis حياً خلال هذه الثورات كلها ، وقد وصفها في قصائد مليئة حقداً تصلح لأن تكون وصفاً لحرب الطبقات عندنا في هذه الأيام . ويقول عن نفسه (وهو مرجعنا الوحيد في هذا الموضوع) إنه من أبناء أسرة قديمة شريفة . وما من شك في أنه قد نشأ نشأة منعمة راضية ، لأنه كان مرشداً ، وفيلسوفاً ، وعاشقاً لشاب يدعى سيرنس Cynus أصبح فيما بعد زعيم حزب الأشراف ؛ وهو يسدى سيرنس هذا كثيراً من لنصح ، ولا يطلب إليه في نظير هذا إلا أن يجبه . وهو يشكو الصد كما يشكو سائر المحبين ، وأجمل ما بقي من قصائده قصيدة يذكر فيها سيرنس بأنه لن يخلد اسمه إلا شعر ثيوغينيز :

هأنذا قد جعات لك جناحين تطير بهما
فوق البحر والأرض اللذين لا آخر لهما ؛
وسيردد اسمك على ألسنة الكثيرين ،
وستكون رفيقاً لهم في مآذهم وفي مرحهم .
وسيامرك الشبان الذين يحبونك أن
تطربهم بالنأى الفض ذى الصوت الشجى ؛
وإذا ما ذهبت إلى أطباق الثرى المظامة ،
إلى مستقر الموتى الذى يبعث الأسى فى القلوب ،
فلن ينقطع اتصالك بالمجد والشرف
بل سوف تجول فى الآفاق اسماً مخلداً ،

سيرنس ، يتردد في بحار بلاد اليونان وسواحلها ،
يعبر البحر المجدب من جزيرة إلى جزيرة
ولن تكون في حاجة إلى الخيل ؛ بل سوف تنطلق بخفة
تحملك ربات الشعر ذوات التاج البنفسجي .
وسيولع بذكرك كل من يولع بالغناء ،
أجل ، لقد جعلت لك جناحين ، ولم أنل منك
في نظير هذا إلا السخرية التي تنلظي كالنار بين أضاهي^(٩٩)
وهو ينذر سيرنس بأن مظالم الأشراف قد توقد نيران الثورة فيقول
إن الليالي حبالى ، وستلد عما قريب
من ينتقمون لهذا الفساد الطويل الأمد .
إن العامة ليظهرون حتى الآن بمظهر الاعتدال ،
ولكن سادتهم فاسدون عمى العيون .
وحكم النفوس النبيلة ، الباسلة العالية ،
لم تعرض السلام والانسجام للخطر في يوم من الأيام :
أما التشامخ والغطرسة والادعاء الكاذب
من ذوى العقول الصغيرة ، والضعف والوقاحة ،
واغتصاب العدالة والحق والقانون ،
والعبث بها بالحيلة والطمع والكبرياء ،
أما هذا كله فهو الطريق الذى سيؤدى بنا إلى الخراب .
وحذار أن تحلم يا سيرنس
(وإن بدت الدولة هادئة غير مضطربة)
أن ستكون الدولة في مستقبلها متمتعة بالسلام والأمن ،
بل سيعقب هذا الهدوء الظاهر ،

عاجلا كان ذاك أو آجلا ، الدم المراق والزراع (١٠٠) (*) .

وشبت نار الثورة فعلا ؛ وكان ثيوجنيز من بين من نفهم الديمقراطية المنتصرة من البلاد وصدورت أملاكه . فترك زوجته وأطفاله في رعاية بعض أصدقائه ، وأخذ ينتقل من دولة إلى دولة - من غوبية ، إلى طيبة ، إلى اسبارطة ، إلى صقلية ؛ وكان يجد فيها بادي الأمر الطعام والحفاوة جزاء له على شعره ، ثم حل به بعدئذ ما لم يتعوده من ضحك شديد . وأنطقه غيظه بتلك الأسئلة يوجهها إلى زيوس ، وما أشبهها بالأسئلة التي يوجهها أيوب إلى يهوه :

طوبى لك يا جوف يا ذا الحول والطول ! إنى أنظر إلى العالم وأنا مندهش غاية الدهشة ، متحير من أساليبك فيه . . . يا عجبا كيف ينطبق فعلك فيه على إدراكك للحق والباطل إذا كنت توزع نعمك على الصالح والظالم على حد سواء ؟ وإذن فكيف يعرف الناس كنه شرائعك أو يدركون معناها ؟ (١٠١) .

ويصب جام غضبه على زعماء الديمقراطية ويرجو زيوس الإله الذى تخفى على الناس طرائقه أن ينعم عليه بشرب دماهم (١٠٢) . وهو يشبه مجارا بسفينة استبدل بقائدها ملاحون عاجزون لا يعرفون قيمة النظام فى العمل (١٠٣) . وتلك على ما نعلم هى أول مرة يستخدم فيها هذا التشبيه . ويقول إن بعض الناس أقدر من غيرهم بفطرتهم ، وإن الأرستقراطية فى صورة من الصور نظام لا بد منه ؛ وهكذا نرى أن الناس فى ذلك العهد القديم قد تبينوا أن الأغلبية لا تحكم قط . وهو يستخدم لفظ الأخبار hoi agathoi بمعنى الأشراف ، ولفظ الأشرار أو الأراذل أو المنحطين hoi kokoi بمعنى السوق . ويقول إن هذه الفروق المتأصلة لا يمكن

(٥) إن نسبة هذه القصيدة والتصانيد التى سيرد ذكرها فيما بعد إلى فترات معينة فى حياة

ثيوجنيز ظنى محض .

استنصالحها ؛ « وإن الرجل الشرير لا يمكن أن يصبح صالحاً مهما علمته » (١٠٥) . - وقد يكون كل الذي يعنيه بقوله هذا أنه ما من تعليم يستطيع أن يجعل السوق أرسقراطياً ، وهو ككل المحافظين الخللص يحرص أشد الحرص على نقاء النسل ويقول « إن ما في العالم من شرور ليس ناشئاً من شره الأخيار بل من سوء اختيارهم لأزواجهم ومن ضعف خصمهم » (١٠٦) .

وهو يدبر مع سيرنس ثورة جديدة مقاومة للثورة السابقة ؛ ومن رأيه أن الإنسان ، وإن أقسم بيمين الولاء للحكومة الجديدة ، يجوز له أن يفتال الحاكم المستبد الظالم ؛ ويتعهد بأن يعمل مع رفاقه حتى ينتقموا لأنفسهم من أعدائهم أشد انتقام . لكنه بعد أن قضى في النفي والعزلة كثيراً من السنين يرشو موظفاً من الموظفين ليتمكن من العودة إلى مجارا (١٠٧) . ثم تمشز نفسه من نفاقه هذا وينشد أبياتاً من الشعر يعبر فيها عن بأسه ، وهي أبيات يكررها مئات من اليونان :

لبس في العالم نعمة

أحسن من ألا يولد الإنسان أو لا يرى الشمس !

ويلها أن يدركه الموت عاجلاً

ويدفن تحت أطباق الثرى (١٠٨) .

وتراه في آخر حياته في مجارا رجلاً طاعناً في السن مهتماً ، وقد أخذ على نفسه ألا يكتب شيئاً في السياسة ليضمن بذلك سلامته . ويجد سلواه في الخمر وفي زوجة صالحة (١٠٩) ، ويجاول جهده أن يتعلم أخيراً أن كل شيء طبيعي ممكن أن يغتفر .

تعلم ، ياسيرنس ، تعلم أن تكون هادئ العقل ؛

ووفق بين مزاجك وبين الجنس البشرى والطبيعة البشرية ،

وخذ تلك الطبيعة كما تجدها ،
فهى مزيج من العناصر فيه الطيب وفي الخبيث —
هكذا خلقنا كلنا ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .
فخبر الناس لا يخلون من لنقص ، ومن بقى منهم
حين يراد الانتفاع بهم لا يقولون عن خيارهم .
ولو أن الأمر كان على عكس هذا
لا أمكن أن تسير شئون العالم (١١٠) !



(شکل ۸) ملهي اُندورس

الفصل السابع

إيجينا وإلدورس

لقد رفعت الزلازل أو خلفت وراءها في عرض الخليج الممتد من مجارا إلى كورنثة جزيرة من أقدم الجزائر المناقمة لهاتين البلديتين في الصناعة والتجارة ، وهى جزيرة إيجينا حيث نشأت في أيام ميسيني مدينة عامرة كشف في مقابرها كميات كبيرة من الذهب^(١١١) . وقد وجد القائمون الدوريون أرض الجزيرة جدباء مستعصية على الزراعة ولكنها جد صالحة للتجارة . ولما غزا الفرس بلاد اليونان لم تكن في الجزيرة إلا أرستقراطية من التجار الحريصين على أن يبيعوا المزهريات الرائعة والآنية البرنزية التى يصنعونها في حوانيتهم ، ليشتروا بها العبيد الذين كانوا يستوردون منهم عدداً كبيراً ليعملوا في المصانع ، أو ليبيعوها للمدن اليونانية . وقد قدر أرسطو حوالى عام ٣٥٠ ق م سكان إيجينا بنصف مليون منهم ٤٧٠٠٠٠ من العبيد^(١١٢) . وفي هذه المدينة وسكت أول عملة يونانية ، وبقيت الموازين والمكاييل الإيجينية هى الموازين والمكاييل الرسمية في بلاد اليونان إلى أيام الفتح الرومانى .

ولقد عرف أن هذه البيئة التجارية يمكن أن تتحول من الاهتمام بالثراء إلى الاهتمام بالفن حين كشف أحد الرحالة في عام ١٩١١ في كومة من المخلفات التماثيل الجميلة القوية التى كانت تزدان بها في وقت من الأوقات قوصرة هيكل أفثيا Aphaea . أما الهيكل نفسه فقد بقى منه اثنان وعشرون من الأعمدة الدورية تحمل فوقها عوارضها . وأكبر الظن أن أهل إيجينا قد

شادوا هذا المعبد قبيل الحرب الفارسية ، وذلك لأن في التماثيل شواهد كثيرة من الطرز نصف الشرق العتيق وإن كانت هندسة البناء من الطراز ليوناني . غير أننا لا نستطيع أن نجزم بهذا ، فربما كان الهيكل قد شيد بعد سلاميس لأن التماثيل التي تصور الإيجيين يهزمرن الطرواديين قد تكون مجرد رمز للزاع الدائم بين بلاد اليونان والشرق ، وإلى النصر الذي أحرزه الأسطول اليوناني من عهد قريب على مرأى من إيجينا في سلاميس ، وقد أمدت الجزيرة الصغيرة ذلك الأسطول بثلاثين سفينة منح اليونان إحداها بعد النصر الجائزة الأولى من جوائز الشجاعة .

ويستطيع السائح بعد رحلة بحرية ممتعة أن ينتقل من إيجينا إلى إيدورس ، وهي الآن قرية لا يزيد سكانها على خمسة نسمة ، ولكنها كانت في وقت من الأوقات من نهر أشهر المدن في بلاد اليونان ؛ فقد كان فيها ، أو على الأصح على بعد عشرة أميال منها ، في أخذود ضيق بين أعلى الجبال وبين شبه جزيرة أرجوس ، الموطن الرئيسي لأسكليبيوس Asclepius إله الشفاء وبطله . وقد خاطبه أبلو نفسه على لسان الوحي في ذنفي بقوله : « أي اسكليبيوس يا من ولدت لتكون مصدر السرور للخلق أجمعين ، يا وليد الحب يا من أنجبتك لي كورونيس الجميلة عند إيدورس الصخرية » (١١٣) . ولقد بلغ من شفاهم إسكيبوس من الكثرة حداً جعل پلوتو إله اللحيم يشكو إلى زيوس - وخاصة بعد أن أحيا رجلاً من الموت - أنه لا يكاد أحد يموت . وتحير زيوس في أمره ، ولم يدر ما يفعل بالجنس البشري إذا لم يكن ما لهم الموت ، فأرسل على أسكليبيوس صاعقة أهلكته (١١٤) . لكن الناس اتخذوه إلهاً منقاداً وعبده في تساليا أولاً ثم في بلاد اليونان بعدئذ ، وشادوا له في إيدورس أعظم تماثيله ، وهناك أنشأ الكهنة الأطباء ، الذين سموا على اسمه بالأسكليپاويين ، مصحة اشتهرت في بلاد اليونان جميعها بنجاحها في علاج الأمراض . وأصبحت إيدورس فيما بعد لورديس Lourdes اليونان ، ينجح

إليها الناس من جميع بلاد البحر المتوسط ، ينشدون فيها نعمة الصحة التي بعدها اليونان أعظم النعم جميعها . وكانوا ينامون في الهيكل ، ويتبعون بدقة النظام الذي يفرض عليهم ، ويسجلون شفاءهم الذي يعتقدون أنه من المعجزات الإلهية على ألواح من الحجر لا تزال باقية في أماكن متفرقة بين خربات الأيكة المقدسة . ومن الأجور والهدايا التي كانت تجمع من هؤلاء المرضى شادت إيدورس دار تمثيلها وملعبها ، ولا تزال مقاعدها ومرامبها باقية إلى اليوم بالقرب من التلال المجاورة لها ؛ وقبابها المرفوعة على العمدة والتي تعد بقاياها المحفوظة في متحف المدينة الصغير من أروع قطع الرخام المنقوش في بلاد اليونان . ويذهب اليوم أمثال هؤلاء المرضى إلى تنوس Tenos في السكلديس حيث يعالجهم قساوسة الكنيسة اليونانية (١١٥) كما كان قساوسة أسكليبيوس يعالجون أسلافهم منذ ألفي عام وخمسة . أما القلعة القائمة التي كان أهل إيدورس يقربون عليها القربان إلى زيوس وهيرا فقد أضحت الآن جبل سانت إلياس St. Elias المقدس . إن الآلهة تموت ولكن التقى والصلاح مخلدان .

وليس أعظم ما يحرص العلماء على مشاهدته في إيدورس هو خرائب أسكليبيوم التي سويت بالأرض . فالمكان كثير الأشجار وليس في وسع السائح أن يرى الملهي الكامل الذي جاء لمشاهدته حتى يصل إلى منعطف في الطريق يبسطه أمامه عند سفح الجبل على هيئة مروحة ضخمة من الحجارة . ولقد شاده پوليكليتوس الأصغر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنه لا يزال باقيا إلى اليوم ، ويكاد يكون كاملا لم ينقص منه شيء . وإذا وقف السائح في وسط المرقص (الأوركسترا Orchestra) وهو مكان رحب مستدير مرصوف بالحجارة ، وأبصر أمامه أربع آلاف مقعد في صفوف متراصة يعلو بعضها وراء بعض ، وقد نظمت تنظيما رائعا بحيث يكون كل مقعد منها مواجهها له ، وإذا ما تتبع بنظراته الممرات المتشعبة التي ترتفع ارتفاعا

سريعا في خطوط مستقيمة من المسرح إلى سفح الجبل من ورائه ، وتحديث بصوت خافت إلى أصدقائه الجالسين على أبعد المقاعد وأعلاها على مسافة مائتي قدم منه ، وأيقن أن كل كلمة نطق بها قد سمعها هؤلاء الأصدقاء وفهموها ، إذ ما فعل هذا تمثلت له لإندورس في أيام عزها ورنخاتها ، وصور له خياله الجموع الهائلة مقبلة حرة مرحة من كل مدينة ومزار لتستمع إلى يورپديز ، وسرى في نفسه إحساس ، أقوى من أن يعبر عنه بلسانه ، بحياة الهواء الطلق البهجة التي كان يستمتع بها اليونان الأقدمون ٥
